عذراوات على شجرة السكر

مجموعة قصصية

تأليف

أحمد فاروق الهجين

طبعة ٢٠٢٠

الهجين، أحمد فاروق.

عذراوات على شجرة السكر: مجموعة قصصية /أحمد فاروق الهجين؛- الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٩ .

٢٠٠ ص ,٢٠ سم

تدمك: ٣ ٧٨٢ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية القصيرة

أ- العنوان

٨١٣٠,١

عذراوات على شجرة السكر

مجموعة قصصية

تأليف

أحمد فاروق الهجين

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة

المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٩/١٣٩٥٨

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٧٨٢-٣

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠٢٠

الكتاب : عذراوات على شجرة السكر

المؤلف : أحمد فاروق الهجين

الغلاف : عصام محمد

الناشر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

sales@atlasdic.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

مقدمة

مساقط النور..

حين يخرج الإنسان من رحم الغيب ، وسعة العالم اللامحدود الذى كان موجوداً فيه ، ومن رحم أمه الرحب إلى ضيق الحياة ..

وحين يفارق أنوار العالم الآخر البراقة المتلألئة ، وتستبد به ظلمة الحياة الصعبة الجافية يظل يبكى ويبكى ..

وتبدأ معركة الحياة ، و رحلة الصراع التى كلها كبد ومعاناة، حتى حالة الحب التى قد يكتب على المرء أن يعيشها قد لاتخلو أيضاً من هذا الكبد ، ومن هذه المعاناة والمنغصات ..

وعزاء الكاتب ، كل العزاء أنه يفتش دائماً فى دروب الحياة الوعرة عن مساقط النور التى قد تُجلِّى له الكثير من غوامض المجهول ، ويخاطر بالسير وحده فى دياجير الظلام ، أو يخوض بقدمية فى غابة موحشة والتى أمسكت النيران بتلافيف أفرع أشجارها الباسقة ونخلاتها الشاهقة الارتفاع ، وربما يحرق نفسه فى النهاية لكى يصبح محض شمعة هزيلة تضئ السبيل للآخرين..

ولعل هذه المجموعة القصصية التى كتبتها بعد رحلة معاناة شديدة فى عالم القص ، رحلة لم تنته بعد ، ولكنها ابتدأت فى ذروة مرحلة المراهقة ، ويوم انتبهت إلى أن ومضة الطفولة الخاطفة ليست إلا مرحلة قصيرة جداً فى حياة الإنسان ، مرحلة اللهو واللعب والانطلاق فى عالم اللامسئولية ، وأن شخصاً ما غيرى يتأهب ليكون لى عوضاً عن الطفل الذى كنته يوماً ما، وكانت القراءة هى البداية مع هذا التحول الدراماتيكى المهول الذى حدث لحياتى ، وغيرنى أيما تغيير ، ليست صدمة العرى كما يحلو للبعض أن يُوَّصِّف بها تلك الحالة الوجودية الطبيعية للإنسان ، وإنما صدمة اكتشاف الحقيقة ، وأننا صغار جداً كالذر المنثور نسبح كهباءات بائسة فى رحاب عالم لانهائى ، عالم مظلم لايجلو جهامة شئ غير المعرفة ، ويالها من صدمة ، ولكن فى الوقت ذاته هى الصدمة اللذيذة ، الصدمة التى تجعل الإنسان يفتش ويبحث وينقب فى أغوار نفسه السحيقة وخارجها ، ويلملم حبات العقد المنفرطة فى سبيله الوجودى ، لكى يبنى صرحه المعرفى ، صرح الحقيقة ، فيصبح ذا الحول والطول ، والقدرة الرصينة على التعبير أيضاً عن رؤاه وأحلامه ووجهات نظره التفسيرية للحياة والمصير الأبدى له بصفة خاصة وللإنسانية كافة .

ولقد كانت تلك هى البداية ، وكانت الأسئلة التقليدية التى قد تطرأ بشكل تلقائى على أية ذهنية : مَنْ أكون ؟ ، وماذا جرى ويجرى ؟ ، وماذا ينبغى على المرء أن يفعل حيال الطوفان الحياتى الذى أفاق فجأة من غفلة الطفولة الوادعة ليجد نفسه ملقياً فى قلبه الهادر ؟ ، ومئات من الأسئلة الحائرة والطروحات والرؤى ، انتهت بىّ شخصياً إلى الإمساك بالورقة والقلم ، فكانت البداية الحقيقية للغر الصغير الذى كنته ، أو الذى كاننى هو ، فكتبت القصة والرواية والمقال وشرعت فى محاولة الكتابات البحثية والفكرية ، ولكن كانت الصدمة !!؟ ، التى واكبت حمى البدايات الخادعة .

وذلك عندما كتبت قصة قصيرة اسمها «الجوع» ، وذهبت بها إلى نادى القصة منتفشاً كالديك لكى أقرؤها على الحاضرين ، ولكنى فوجئت بأن القائمين على منصة الندوة الأدبية ينحونها جانباً ، فهى لم ترق فى نظرهم إلى القراءة والمناقشة والتحليل، وأحسست بالخجل الشديد ، ولم يبال أحد بما جرى ، بل لم ينتبهوا إلى خروج الديك على أطراف أصابعه منسحباً كغراب البين المسحول من الباب الخلفى ، ولكننى كنت أشعر أن الأعين كلها مسلطة علىّ ، حتى من يسيرون فى الشارع ، وكان قرارى هو هجرة القلم إلى الأبد .

كانت أمى الحبيبة - متعها الله بالصحة والعافية - هى مسقط النور الحقيقى فى حياتى ، والتى سرعان مابددت لىّ ظلمة الموقف الذى عشته ، وإحقاقاً للحق لقد ساهمت شقيقتى الطبيبة والكاتبة د.أمل - متعها الله بالصحة والعافية - فى ذلك الأمر أيضاً ، فيومها قالت لىّ أمى : « ومن قال لك أنك قد أصبحت كاتباً بعد ، وإنما أنت تريد أن تكون كاتباً فلتكن كاتباً، ومادام عندك من الأدوات والإرهاصات مايجعلك أهلاً لذلك فلتكن كذلك .

جان دى موبسان ، إدجار آلان بو، تنسيى وليامز ، شكسبير، فيكتور هوجو ، جول فيرن ، آرثر ميللر ، سارتر ، العقاد ، طه حسين ، توفيق الحكيم ، زكى نجيب محمود ، نجيب محفوظ، يوسف إدريس ، مصطفى محمود ، ويوسف القعيد ، أنيس منصور، نزار قبانى وكثيرون غيرهم من عمالقة الفكر العالمى والعربى كانوا مساقط النور التى أزاحت الغمام ، وكشفت لىّ الحقيقة فى كثير من أبعادها ، وأن أحداً لم يظلمنى يوم رفضوا قراءة قصة غر مراهق تجرأعلى القص قبل أن يصبح قاصاً ، وأننى قدمت قصة تقليدية ساذجة خارج الإطار التراكيبى المعقد وربما المبهم والذى تتسم به طبيعة القصة القصيرة الحديثة على وجه التخصيص .

والطريف فى الأمر أن الكاتب الكبير نبيل عبدالحميد ، الذى رفض عرض قصتى يوم النادى ، لفت الأيام ودارت وعملت كمهندس ديكور فى سهرة تليفزيونية من تأليفه من انتاج قطاع الانتاج بالتليفزيون المصرى ، وكنت قد حققت قدراً لابأس به فى مجال القص وكتابة المسلسلات وحصلت عن بعضها على العديد من الجوائز الأدبية الأولى والذهبية ، وقصصت عليه ماحدث ، والذى لم يذكر ذلك الموقف بطبيعة الحال ، وأنى له ذلك فى طوفان من الذين استضافهم فى نادى القصة بالقصر العينى على مر السنين ، ولكن الرجل بكل الأدب ودماثة الخلق اعتذر لىّ ، فاعترضت سبيل كلماته الرقيقة المنمقة وأن كيف يعتذر عن عثرة دفعت صاحبها للأمام ، وسقطة رفعت صاحبها للوقوف على ساقين من حديد ، والحق أنه قد أدى عمله بمنتهى الأمانة ، الأمانة التى جعلتنى أقرأ وأقرأ ، بل ابتدعت فكرة الغايات الإحدى عشر ، وأنه لابد أن تكون للإنسان غاية فى الحياة يسعى بكل ماأوتى من قدرة لكى يحققها ، ولقد أحصيت غاياتى فى الحياة يومها ، ثم سجلتها فى وريقة ، وجعلت أثابر وأحرص بكل طاقتى على الوصول إلى تحقيق هذه الغايات على أرض الواقع الصلبة، والتى كانت باكورة ثمراتها قصتى « الحب يتنفس رصاص» ، تلك القصة القصيرة – لا الرواية – التى كتبتها فور انتهائى من عمل بحث فى فنون القصة القصيرة وماهيتها وأدواتها ومن هم

أساطينها وروادها ، بل استطعت مع مرور الوقت أن أكتب القصة بأدوات تخصنى ، وبشخصيتى المستقلة ، ومفرداتى المبتكرة، وإن دارت فى إطار عالم القصة الحديثة ، وبناء على تراكيبه وتفانينه ومخادعاته الشقية ، ولم تخرج عن طبيعتها وفلسفتها والتى تختلف كثيراً عن كل أنواع وفنون القص الأخرى ، ولقد شاء القدر أن تظل قصة « الحب يتنفس رصاص» حبيسة حقيبة قديمة أسفل فراشى لمدة عامين أو أكثر ، وحين قرأتها بالصدفة على أمى وشقيقتى الوحيدة ، أعجبتهما للغاية ، وألقيا علىَّ باللوم الشديد لإهمالى لها هكذا ، ثم فوجئت بأمى قد اشتركت لىّ بها فى إحدى المسابقات الأدبية التى أعلنت عنها يومذاك مجلة حريتى على مستوى مصر والعالم العربى، والمفاجأة أننى قد حللت سادساً من بين قائمة الفائزين ، وحصلت على جائزة مادية ومجموعة قيمة من الكتب ، وأجرت معى صحفية ناشئة «غادة عبدالجبار» حديثاً مطولاً ، كما نشرت لىّ المجلة مشكورة القصة تحت رعاية الإذاعى الكبير حمدى الكنيسى ، وذهبت فيما بعد بالمجلة منتشياً فوق جواد النصر والإحساس بالذات إلى كلية الفنون الجميلة وقد كنت لم أزل بعد طالباً فيها لم أتخرج ، ولا أنسى عبارة أمى وأننى الآن – أى فى تلك المرحلة التى أتحدث عنها – أستطيع الذهاب إلى نادى القصة كقاص بحق وحقيق .

ومن النعم التى أنعم الله علىّ بها أننى قد شرفت بالفوز بأكثر من قصة - ثلاث على ما أذكر - فى مسابقات نادى القصة، كما حصلت على المراكز الأولى فى الكثير أيضاً من المسابقات الأدبية المختلفة على مستوى مصر والوطن العربى ، وفى مسابقة إحسان عبدالقدوس الشهيرة على وجه التحديد ظللت أحصد جوائزها الأولى لأربع سنوات متتالية ، وزادنى شرفاً وفخاراً أنها كانت تحت رعاية الأديب العالمى النوبلى نجيب محفوظ وشهاداتها ممهورة بتوقيعه الكريم ، وكم من مرة وقفت فيها لكى أتسلم تباعاً الجوائز من كبار الشخصيات وعلى سبيل المثال لا الحصر: شيخ الأزهر جاد الحق على جاد الحق ، د.على لطفى رئيس الوزراء الأسبق ، الأستاذ الشيخ عبدالله صالح كامل، اللواء تحسين شنن محافظ السويس الأسبق ، السياسى المفكر د. أسامة الباز، والأستاذ محمد عبدالقدوس ، والكاتب الراحل الكبير أنيس منصور ، والذى لا أنسى مداعبته لىّ يوم وقفت أمامه أتسلم الجائزة الأولى عن قصتى «الرحيل إلى الزمن الأخضر» فنطقها «الأغبر» بدلاً من «الأخضر» فضجت القاعة بالضحك، ويومها كان التليفزيون حاضراً ويسجل مع الفائزين، فغمزنى صديق العمر الأستاذ « أسامة زغلول» فى نادرة من النوادر التى لم تمح من ذاكرتى بعد إذ قال لىّ : « لاتنصرف ، أنت الأول ، ولسوف يأتون للتسجيل معك» ، وانتظرنا ولم يأت أحد ، فهممت بالانصراف

فقال لىّ مازحاً :« لاتكن عجولاً يافتى ، بدأوا بالأخير ثم قبل الأخير وهكذا حتى يأتون إليك» ، ولكن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث ، ولكن لا أنسى أن الكاتب الراحل الكبير لويس جريس فوجئت به ذات مرة يمد فى خطاه بتواضع الكبار لكى يلحق بىّ بعد تسلمى لجائزة قصة « أيا توشكى» لتتهنئتى والشد على يدي، ولقد كان من المفترض أيضاً أن أتسلم الجائزة الأولى عن قصة «لعبة الشيطان» من د. فاروق حسنى والإعلامى الكبير والصديق العزيز الراحل طارق حبيب والفنانة نبيلة عبيد ، ولكن تسلمتها أمى بدلاً منى لظروف خاصة اضطرتنى إلى عدم حضور حفل التكريم .

ولقد مضت السنوات الطويلة ، وألحت علىّ فكرة جمع هذه القصص بين دفتى كتاب واحد ، تلك القصص التى شهدت ميلادى الأدبى ، وربما مراهقتى الفكرية ، والتى نالت كذلك حظها من الفوز بمسابقات أدبية والنشر هنا أو هناك ، بل تحول بعضها إلى مسلسلات تليفزيونية ومنها قصة «كانت هنا شجرة» والتى فزت عنها بجائزة أدبية قيمة ، وتسلمت جائزتها فى الأوبرا من الراحل د. أسامة الباز ، كما نشرتها لىّ مجلة إبداع الأدبية ، ثم أخيراً تحولت إلى مسلسل للأطفال أنتجته شركة القاهرة للصوتيات والمرئيات ، وقام ببطولته عبد المنعم مدبولى وآخرين من بينهم

الفنانة مديحة سالم التى قاطعت الاعتزال من أجل هذا العمل ، وأنه كان من الصعب عليها كما أخبرتنى أن تمتنع عن القيام بعمل يمكنه أن يخدم المجتمع ورسالة الفن الحقيقية ، ولقد كان من المفترض أن يحصل هذا العمل على الجائزة الذهبية فى مهرجان الإذاعة والتليفزيون ، وتهيأ بالفعل مخرجه الصديق المبدع الأستاذ أيمن عبيس لتسلم الجائزة لولا إخباره فى اللحظات الأخيرة أنه قد تم إعطاء الجائزة لدولة شقيقة بحسب سياسة المواءمات ، «ولكن عوضنى الله بشكل شخصى وذلك بالحصول على جائزة الإبداع الذهبى كأحسن سيناريست فى عام ٢٠٠٥ عن مسلسل الأطفال» حكايات بوبا العالِم» ، من إخرج الصديق المبدع الأستاذ استيفان منير .

أما قصة « عذراوات على شجرة السكر» فكانت حكايتها معى حكاية ، إذ تحولت مباشرة إلى مسلسل تليفزيونى ، ولم تمر بحسب قانون التسامى من حالة إلى حالة وسطى بين الحالتين ، فهى لم تنشر ولم أدخل بها أى مسابقة ، وحين قدمتها كسيناريو مسلسل أشادت الرقابة بالعمل ، كما وافقت عليه لجنة التنفيذ بلا تحفظ، وتم إسناده إلى المخرج الكبير عادل صادق ، ولكن كانت صدمتى الكبرى حيث تم تغيير النص الأصلى تغييراً جعل العمل يفقد ماهيته الحقيقية ، وأخل به خللاً جسيماً ، وانهار حلمى فى

تقديم عمل كان له قصب السبق يومها فى مناقشة - بموضوعية كبيرة - بعض القضايا المعقدة ومشاكل الفتاة المصرية والعربية، ولقد كنت أضع فى ذهنى وقتها أن تكون الفنانة آثار الحكيم هى التى تقوم بأداء دور البطولة من خلال شخصية بطلة العمل «جيلان فجر الدين» ، ومن خلال اتصالاتى بها كانت مرحبة جداً بالقيام بمثل هذا الدور ، ولكن كانت رؤية المخرج تمضى فى اتجاه آخر، فلقد شده أكثر عالم رجال الأعمال والصراعات الدائرة فى عالم المال والسوق ، فاختزل الخط الرئيس لصالح رغبته ، بل فوجئت برغبته فى تغيير اسم المسلسل نفسه بحجة تسويقية ؛ وأن القطاع الاقتصادى يبدى تخوفاً من الاسم ذى الصبغة الأدبية، ومع الضغوط حضرت حفل بداية تصوير المسلسل فى استديو الجيب على النيل ، وطُلب منى أن أفكر فى اسم آخر وإلا توقف التصوير وحدوث مشكلة كبرى بسبب إصرار السيد المخرج الكبير على تغيير الاسم ، وحتى لايحدث شيئاً من هذا القبيل تركت له الأمر برمته ، فخرج المسلسل تحت اسم - مكرر لعمل آخر قديم - « ليه يادنيا ليه» ، ولقد كانت إتفاقات البطولة النسائية تمضى مع الفنانة الرقيقة شيرين سيف النصر وقتها وليس الفنانة آثار بحسب رغبة المخرج والتى لم أعترض عليها البتة ، بل رحبت بها جداً ، وتم الإعلان عن بدء شيرين سيف النصر الإعدادات النهائية للبدء فى تصوير المسلسل ، غير أننى فوجئت بأن البطولة

أسندت إلى الفنانة علا غانم وهى أول بطولة مطلقة لها ، والتى أنطلقت من بعدها شهرتها الكبيرة فى عالم الفن والسينما ، ولقد كان هناك والحق يقال كوكبة كبيرة جداً من الممثلين الكبار المشاركين فى العمل وعلى رأسهم الوسيم والفنان الكبير مصطفى فهمى وطارق لطفى وكريمة مختار ورجاء الجداوى وعبدالله فرغلى ورشوان توفيق وحسن مصطفى وممدوح وافى ونبيل نور الدين والسيد راضى وحمادة سلطان ووفاء مكى وجيهان قمرى وآخرين ، ولكن الطريف فى الأمر أنه أثناء عرض المسلسل على شاشة التليفزيون استوقفتنى مهندسة زميلة لىّ فى مبنى ماسبيرو وسألتنى بلهفة عن حدث ما بعينه فى المسلسل: « هو مين ياأحمد اللى خد شنطة المخدرات ؟!» ، ففغرت فمى بدهشة بالغة وقلت لها : « والله ماأعرف أن فيه مخدرات فى المسلسل أصلاً إلا منك دلوقت! ، وياريت لما تعرفى قوليلى !!» .

والحق أننى لم أقو على مشاهدة المسلسل أثناء عرضه عدة مرات وعلى قنوات متنوعة ، مع أن الكثيرين أشادوا به ، ولكن لم يكن هو حلمى ، حلمى الذى شاهدته قبل غيرى ، وبخاصة أنه كان يطرح قضايا البنت المصرية ويجتهد فى الوقت ذاته فى تقديم العلاج الجذرى ، فى جو ملئ بالدراما والاثارة المشوقة ، ولكن مضت الريح بما لم يشته المؤلف ، ولهذا كنت أرفض كثيراً

الظهور فى أية أحاديث إعلامية عنه سواء كانت تليفزيونية أو صحفية ، أللهم إلا القليل من المقابلات التليفزيونية ، حيث اتصل بىّ المعد الكبير الأستاذ صلاح الدالى ذات مرة وأخبرنى أن أحداً من أبطال العمل لم يحضروا لتصوير برنامجه المعروف «أول عرض» والذى كان يذاع على الهواء مباشرة غير الأستاذ المخرج عادل صادق – وهو للحق أحد الكبار الذين قامت على أكتافهم أمجاد الدراما المصرية مع نور الدمرداش ومحمد فاضل وأحمد توفيق وآخرين بطبيعة الحال –، فقبلت الظهور على مضض إنقاذاً لهذا الموقف المحرج ؛ وحيث كنت موجوداً بالفعل فى استديو ٥ بالتليفزيون أمارس مهامى كمهندس للديكور فى أحد الأعمال ، ومن الطرائف أيضاً ، ففى مقابلة تليفزيونية أخرى قبلتها أيضاً إحراجاً من الزميلة المعدة أمل الجمل فوجئت بأن أحد السادة المتصلين يهاجمنى تحديداً هجوماً شديداً جداً – وبلا ذنب بطبيعة الحال – وكذلك المخرج لإظهارنا طبقة رجال الأعمال – والتى ينتمى إليها هو شخصياً أى المتصل – وكأنهم وحوش وشياطين لاتعرف قلوبهم الشفقة والرحمة ، فى حين أن رجال الأعمال مثلهم مثل أى شريحة فى المجتمع فيهم الطيب وفيهم الخبيث ، وهو رأيي وفلسفتى الشخصية التى تكون عادة أساً رئيساً من الأسس التى أبنى عليها الكثير من أعمالى ، وبعد مكالمة المتصل الكريم ران الصمت طويلاً على جميع من فى الاستديو الأساتذة

عادل صادق ورشوان توفيق وعلا غانم ، وكان من المحال بطبيعة الحال أن أبرئ نفسى ، وأتحدث على الهواء عما دار وجرى فى كواليس العمل ، وكيف أن عملى نال من العبث به مالم ينله عمل آخر فى التاريخ على ماتصورته ليلتها ، واكتفيت بالصمت والإنصات فقط للدفوع التى راح يسوقها غيرى من الحاضرين ، ولهذا تجددت رغبتى مع مضى الأيام فى أن يطَّلِع القارئ الكريم على حقيقة «عذراوات على شجرة السكر» من خلال نشرها فى صورتها الأدبية ، وتبقى حقيقة أخرى للتاريخ أن البعض من المخرجين الكبار كانوا يبدون ترحيباً فورياً بالقيام بإخراج مثل هذا العمل بمجرد سماع اسمه ، ومنهم المخرج الشهير عبدالعزيز السكرى وأحمد عبدالحليم وأيمن عبيس وغيرهم .

ولكن على أية حال هى رحلة قدر لنا أن نعيشها بكل مافيها من حلاوة ومرار ، اختياراً وإجباراً كان الحال ، وإلام صار ، فلاريب أن الكاتب فى كل الأحوال على موعد للقاء نفسه قبل أن يلقى وجه ربه الكريم ، وهل خيراً قدم للناس أم شراً ، وهل كان مسقطاً للنور أم كان حائلاً صلباً دون وصوله إلى الآخرين .

أحمد فاروق الهجين

« لعبة الشيطان»

ثمة أشياء غريبة راحت ترين على سلوكه فى الآونة الأخيرة، لم يعد متحمساً للعمل ولامؤمناً بضرورة إتمامه على النحو الذى كان يرضى أبيه من قبل ، كان كثيراً مايبدى اعتراضه فى صمت؛ أصبح على مرّ الأيام ثورة احتجاج عارمة فى نفسه ، غمغم هامساً خشية أن يسمعه أحد :

- علام كل هذا الدمار السخيف !، ألا من نهاية ؟!.

كان فضولاً منه أن يظل واقفاً أمام جموعهم الحاشدة ، يراقبهم فى ضيق وقد اقشعر بدنه ، وبدا يُسفح عرقاً من هول مايرى، كانوا يتدافعون بالمناكب ، ويتقاتلون بالهراوات والمُدَى المعدنية الحادة ، تغطيهم السماء الداكنة بخيوطها المثالة كالدموع، ولا أحد يدرى إلام ستنتهى معركتهم الحامية الوطيس ، جذبه رفيقه من ساعده عدة مرات وهو يضحك بمجون وانفعال شديد قائلاً :

- هيه فيمَ شرودك ، ألا تشعر أننا قد أدينا عملنا على خير مايرام ، هيا بنا فأمامنا اللحظة الكثير من المهام الأخرى .

لحظات كان خلالها سكان الحى يشعلون النار فى أنفسهم ، طلقات الرصاص راحت تمرق بجوار الفضاء ، تمزقهم ، قطرات الدماء الساخنة تناثرت فوق أشلائهم المبعثرة فى كل مكان على سطح الأرض ، صراخ الصغار تحت الأقدام الكبيرة يكاد يطفئ وجيب القلوب ، ظل مطرقاً فوق رابية الجماجم العالية لاينبس ببنت شفه ، ويفيض على الصمت بفكره المتدفق كشلال جارف، عاد رفيقه وقد انتبه إلى الحال التى وصل إليها صاحبه ، وقف أمامه مباشرة وبعينين قرمزيتين تقدحان شرراً راح يتفرسه ويتأمله فى ريبة شديدة ، هزه من كتفيه هزة عنيفة وقد تخدد وجهه الهلامى كقطعة من العجين الجافة المشققة وهو يقول له بحدة :

- سوف تضيعنا أيها البكرى المدلل ويكون مصيرنا الطرد من مملكة النار الكبرى ، يجب أن تحذر من نفسك فأنا أكاد أسمع صوت الوسوسة التى تدور فى أعماقك الآن .

أطرق برأسه آسفاً متحيراً ، دنا منه متسائلاً فى همس وحذر شديدين :

- هل بكيت من قبل ؟!.

ضحك ضحكة مدوية جعلته يستلقى على قفاه وقد فغر فاه حتى آخره من المفاجأة بمثل هذا السؤال الآدمى ، أشرع بصره من طاق عينيه إلى عرض الطريق المشتعل بجثث الموتى ، ثم قال مبتسماً :

- عندما لايصبحون أغبياءً يتملكنى النشيج الحاد ، ولذلك لم أبكِ من قبل .

مرة ثانية عاد يدس شفتيه المتهدلتين فى أذن رفيقه الذى استحالت معالم وجهه فجأة إلى الاهتمام الشديد :

- ثمة أحاسيس عجيبة لاأعرف مصدرها تداخلنى ، وتدفع إلى أعماقى التمرد والشك فى جدوى تلك المهام التى نقوم بها فى كل لحظة .

وفيما هو ينكس رأسه كانت تنهيدة حارة تشق صدره المقبوض إلى الخلاء الرحب ، ثم استطرد قائلاً بوجه عبوس :

- إننا مجرمون نحب رائحة الدماء ، وتفعمنا الغبطة كلما اشتد الدمار وانتصر الفساد ، فلماذا بِرَ.....؟! ، آه إن ألف لماذا وكيف وهل تسكننى وتمزق حشايای .

بدا رفيقه متأثراً ومرعوباً من هول الذى سمعه ، ومِنْ مَنْ؟!!، فقال بصوت خفيض وقد توجس خيفة :

- يبدو أن لوثة قد أصابت جَنَانك ، ياويلتى إن هذا الكلام جد خطير ، فماذا لو أن أبانا سمع بمقالك هذا !؟.

سكت برهة ثم أردف قائلاً والحيرة تتلاعب بمخالبها فى تقاسيم وجهه الأسود النارى :

- ثم إننى لا أستطيع الوشاية بك خوفاً من انتقامك لاخوفاً عليك ، لقد وضعتنى فى مأزق حرج ، وأى مأزق !.

كانت الشمس قد هوت بساعديها فى لجة الظلام الدامس ، مضيا معاً يتسللان وقد لفهما السكون التام ، وبات لايسمع غير ضجيج الهمس المعتمل فى نفسيهما ، قال فجأة بصوت هتك نُسج الليل وهو يستند إلى صخرة ناتئة فى الجبل ، وقد ارتكز على ساق وجعل يطيح بالأخرى فى الهواء مرة تلو مرات :

- أعرف أننى قد أصبحت شاذاً مثل أبى بين الملائكة ، فليتنى أعرف مَنْ الذى أشعل فى نفسى تلك الأحاسيس المرعبة .

همس رفيقه وهو يهم بالانصراف وقد استكنه الرعب تماماً :

- أخشى أن يكون.....

ثم تبدد فى جوف المجهول وصرخاته ترجرج السماء على رحبها رجاً عنيفاً .

كانت جالسة القرفصاء تدير بعينيها سحب القلق المتصاعدة من أعماقها ، أخذت تسلطهما عليه لمدة طويلة أربكته ، نهضت على قدميها المرتعبتين تشق جموعهم المتشحة بهيئات سوداوية مهفهفة وكأنهم سحب السماء العاصفة ، لمعة أعينهم تخترم ظلمة الليل والتى بدت متناثرة كحبات الزيتون الأسود البارقة ، بعضهم راح يطوف صارخاً حول شجرة قاصية مازالت تحرق النار بأوراقها المتساقطة فى مهاوى الريح ، دنت منه حتى التزمته تماماً ، ثم أهوت بعينيها الحارقتين عليه ، ارتعب ، بدا مقروراً محروراً ، كاد يلبس الريح ويتبدد كالدخان ، يصرخ ويكتسحه العجز حتى أنفاسه ، قالت هامسة وهى تأمره أن يلزم الصمت بإشارة من يدها الزعنفية الهيئة :

- إن أعماقى تكاد تسكن فى قاع هواجسك المهتاجة ، إننى مثلك تماماً أتمزق .
- أنتِ يازوجة أبى !!؟.
- وماالغريب فى ذلك ؟.
- كنت أحسبك أقرب الجميع إليه قلباً وقالباً .
- أجل ولكن هذا لايمنع أننى ثائرة مثلك ومثلهم .
- ماذا ! ، أثائرون هم أيضاً !؟ .

أطرقت آسفة وهى تتمتم فى يأس :

- نعم ، ولكن ماالفائدة .

راح يقترب منها حتى كاد يلاصقها ، ثم سألها باهتمام شديد وقد ازداد همسه وحذره :

- بما أنكِ أقربنا إليه فلماذا عصى وتكبر و.....

قاطعت السيل المتدفق من أعماقه بإشارة مرتعشة من عينيها وقد بدتا كترس ذهبى بارق يدور بسرعة جنونية ، وفى قلبه تروس أخرى تلمع بألوان غريبة لايعرفها البشر وهى تقول :

- أنت تقتل نفسك ، فالسؤال الذى لاإجابة له يقتل صاحبه، إن أباك مجرماً لايرحم أحداً فكن محتاطاً لنفسك ولنا .

كانوا يحترقون فى أعماقهم ويشعرون أنهم هلكى إن عاجلاً أو آجلا ، راح يصرخ فيهم ، ويضرب كفه فى جبين رأسه المخروطية الشكل قائلاً :

- كل هذا مضيعة للوقت ، لقد أصبحنا ضعفاءً إلى حدٍ لايطاق .

زجره رفيقه صارخاً ، كان أكثرهم خوفاً وضجراً .

- أيها اللعين ، لقد غمرتنا بوساوسك وشكوكك الواهية ، كف وإلا نبذناك .

تخطاه بنظرة ازدراء حارقة ، جعل يدنو منها ، قذف بعينيه فى عينيها الحائرتين ، ثم تساءل إليها يائساً :

- أكاد أغرق فى الحيرة مثلك ، ماذا ينبغى علينا أن نفعل ؟.

يئس تماماً من أن تجيبه ، انطوى على نفسه لاينطق بكلمة أخرى .

مرة ثانية افترشهم العجز وقد شخصوا بأبصارهم الكليلة إلى سماء غير سماء الدنيا ، ولكن شيئاً ما جعلهم ينتفضون فجأة ، ويتزلزلون ، لم يتفقوا على شئ بعينه وان تلاقت نظراتهم المتلألئة بقطرات الدمع ، شق فجأة صوت مخنوق جلبة السكون وهو يجهش بالبكاء الحار :

- لقد عصينا وكفرنا ، ضللنا وأضللنا .

رد عليه آخر وثورة الاحتجاج تخالج همس نبراته :

- لقد عصى وغوى فما جريرتنا نحن ؟!.

هب متوسطاً جموعهم كالطود الأشم :

- هذه فرصتنا الوحيدة لكى ننتصر لأنفسنا .

ثم دار بجسده وذراعيه ونظراته دورة كاملة حول نفسه صارخاً :

- ياأبتِ كفاك مكراً وخداعاً ، لتظهر حتى أقتلك عليك اللعنة .....

جذبه رفيقه من معصمه بقسوة وهو يصر على أسنانه :

- قد يسمعك يامجنون .

قال بلامبالاة صدفت به عن توخى الحذر :

- ليسمع عليه اللعنة الأبدية وعليك .

مرت لحظة صمت عصيبة ثم أردف قائلاً وهو يشتعل بالرغبة والحماس :

- لقد حلقت اليوم بجناحى الغضب ، بالقرب من مغارة الجماجم السرية التى يختلى فيها إلى نفسه ، وكان غارقاً حتى رأسه فى التخطيط للنظام الأرضى الجديد ، ألم أقل أنها فرصة وربما كانت الأخيرة .

كانت لحظات فارقة فى وجودهم جميعاً ، كانوا يتأرجحون بين رغبتين متناقضتين تماماً ، الفرار أو الثبات ، وكل رغبة راحت تشدهم من طرف بجنون حتى كادوا يموتون سحلاً وبالبطئ ، فى تلك الأثناء رفعت زوجة أبيهم عقيرتها قائلة فى حزم :

- ماذا تنتظرون ، هيا بنا جميعاً نمضى قدماً نحو التوبة .

هـب أحدهـم وهـو ينظـر نحـو الجميـع إلاهـا ، وطـرف سـبابته المدببـة كـرأس الدبـوس الحـاد يـكاد يختـرق حدقـة عينهـا الغائـرة :

- حسـبكم ، هـذه امـرأة مخبولـة لاتسـمعوا لهـا فلاأظـن أن لمثلهـا أو لمثلنـا مغفـرة .

ثم توجه بناظريه نحوه صارخاً :

- ولنطـرد هـذا العاصـى ابـن العاصـى بعـد مـا أشـعل فـى مطاوينـا نـار الثـورة والضميـر .

انسـكبت كلماتـه فـى نفوسـهم كالمُهـل يشـويهم ، لاذوا جميعـاً بالصمـت ، قـال وهـو يسـبل عينيـه وقـد بـدا حزينـاً يئوسـاً :

- هيـه تذرونـا الريـح العاتيـة فـى وجـه إعصـار أشـد عتـواً ، فيالبؤسـنا جميعـاً .

●●●

كانـوا جلوسـاً وقوفـاً لايعـرف لهـم حـال ، سـقط نظرهـم فجـأة علـى شـئ منيـر يتلجلـج مـن بعيـد داخـل عبـاءة فضفاضـة ، أيـدى الريـح العابثـة جعلـت تتلـوى وتنتشـر بأطرافهـا الناصعـة البيـاض علـى صفحـة الليـل البهيـم ، بـدا شـيخاً وقـوراً يسـتند إلـى الهـواء فيحملـه ، ويسـجد علـى الأرض فيضـئ المظلـم منهـا ويثبـت المضطـرب ، خشـعت

أبصارهم، ووجلت نفوسهم إجلالاً لمنظره المهيب ، كانوا يرتجفون مثل رياش هشة أطلقها الحظ خبط عشواء فى طريق ضبابى عاصف بلا معالم .

نطق ناطق منهم بعينين مؤملتين بالرجاء يستحثه وينتظر منه المبادأة :

- أرأيت ياكبيرنا مارأينا ، يبدو أنه صاحب كرامات وحكمة تغور فى أعماقه مسافة ألف عام ركض وأخرى طيران بأجنحتنا المشرعة للأفق .

راحوا يقتربون منه وقد توجسوا خيفة من كل شئ ، كان عجوزاً تبدو عليه مخايل النجابة ، يتوكأ على التسعين من عمره، نظر إليهم ملياً ، ثم أخذ يتفحصهم واحداً بعد الآخر فى هدوء وطمأنينة، فيما كان يتقدم نحوه بحساب وهو يقول بصعوبة بالغة للشيخ :

- معذرة أيها السراج المنير ، لقد كنا نرتاع من هيئتك نحن أيضاً ، حتى أننى أخشى من التقدم خطوة أخرى نحوك فأحترق كالهشيم .

تقدمت أمهم حانية الرأس نحوه وقد احتفظت بمسافة كبيرة بينهما ، ثم قالت وهى تلملم فلول شجاعتها :

- يبدو أن حظك العاثر ياسيدى قد أوردك الليلة سكة العصاة والخطاة فهلا عذرتنا .

سكتت برهة ثم استطردت قائلة برجاء :

- ياشيخنا ، مُرنا فنطيع أو تقيرنا المعصية إلى الأبد .

تحلقت أبدانهم المهفهفة وتماسكت بأياديهم الرغبة ، بدوا كدائرة سوداء مرعبة تدور حول نقطة بيضاء ضاوية ، انسل من بين جموعهم وهو يقول بنبرة رجاء عالية :

- أيها الشيخ النبيل ، هلا كنت ناصحاً أميناً لنا لدقيقة واحدة فقط .

تململ الشيخ فى وقفته ، رفع أذناً وأصغى بالأخرى ، ثم نطق بعد أن فرغوا من حديثهم المتوتر قائلاً فى هدوء وسكينة :

- وان كنت أنصح لنفسى أن تبتعد عن هيئاتكم الشبحية المخيفة ، إلا أننى وهبتكم دقيقة من وقتى الثمين فحسب ، هاتوا ماعندكم .

قال محبوراً :

- إننا فرحون ، إننا جد .....

فقال يتعجله :

- لقد شارفت دقيقتكم على الانتهاء ، سوف أمضى .

لحق به متلعثماً :

- مهلاً أيها الرجل الطيب ، إننا ضالون ونريد التوبة إلى .....

توقف عن الكلام وكأن حجراً قد سد حلقه ، ابتسم الشيخ وهو ينظر إلى السماء قائلاً :

- إلى مَنْ ؟ ، مابالك لاتنطق اسمه !؟.

- يبدو أن فطنتك قد خانتك هذه المرة ، ألا تعرفنا!!؟.

- بل أعرفكم جيداً أكثر من معرفتكم لأنفسكم أيها الملاعين .

تنحنح الشيخ ثم طفق يوليهم ظهره ويحث الخطى على الانصراف ، وهو يقول فى تؤدة ونورانية بادية :

- توبوا تثابوا ، أو عودوا أدراجكم تصحبكم اللعنة .

تقدم نحوه من بعيد ثم سبقه وهو يرجوه أن يجيب :

- ليست حاجتنا إلى ماقلت ولكن إلى الوسيلة ، كيف ؟.

تكلم وهو ينسحب من بين جموعهم ، وهم يتوسلون إليه كالغربان المحلقة :

- إن أباكم قد عصى وتكبر إذ كيف يسجد للطين وهو من النار المقدسة ، فلتسجدوا إلى الطين يابنى أبليس وهذا ماعندى .

- ولكن آدم قد ذهب ، والأدهى أننا سمعنا أن أبانا فى النار فى النار .

تجهم وجه الشيخ وقال فى ضيق بادٍ :

- حسبكم لاتنطقوا اسمها أمامى ، هيا ماذا تنتظرون ؟!.

راح يتبدد كسحائب الفجر السرمدية ، قال أحدهم متبرماً وهو يودعه بنظرة آسية :

- هل فهم أحدكم مايعنيه ذلك المخرف ؟.

قالت بعد تفكر عميق فى حزم قاطع :

- أحسبنى قد فهمت مقصده ، فلتفعلوا مثلى .

قال لها واليأس لسان حاله :

- إننى عجزت عن فهم مارمى إليه ذلك الشيخ المسن .

- فقط انتظر حتى يمر بنا أول آدمى .

ثم أردفت قائلة وكأنها تبث السكينة فى أنفسهم المتقدة بالخوف :

- إن أبناءه من طين أيضاً وهم كثرة كأرجال الجراد .

راحوا يلبون أوحى من رجعة الطرف ، وقفوا على مشارف الطريق ينتظرون قدوم أى طيني ، أصابهم القنوط ، مرت بهم أسأم وأكأب الأوقات ، كان الجميع يسبونهم ، ثم ينطلقون هرباً وراء سيقانهم فى أثر الريح هلعاً من مناظرهم اللعينة ، فجأة انقطع حبل السكون ، شاعت الجلبة بينهم ، أخذ يخترق صفوفهم، كان أحدباً قبيحاً ومنكفئاً على ظله ، ارتمت ساجدة أمامه تسد عرض الطريق وقد انخرطت بهم فى نوبة من البكاء الحاد ، تصرخ ويصرخون فى تضرع وخبت :

- اغفر لنا ، اغفر لنا يا.....

تأزم وجهه ، صار يرتعد كالمصروع ، سكن العجز أوصاله ، سأله وأمارات الدهشة والغرور تتراقص فى عينيه :

- مابالك أيها القزم القمئ لاتهرب مثلهم ؟!.

نهرته قائلة :

- لاتكن وقحاً عنيداً كأبيك ، هيا .

دفع التراب برجله القصيرة فى عينيها ، جلجلت ضحكاته، تزلزلت لها الجبال الشواهق ، تلاشت معالمه ، أصبح عملاقاً شريراً نارى النظرات ، هبوا جميعاً من فوق أنفسهم لايصدقون رصد العيون الخائفة ، فى أثر بعضهم البعض راحوا يجفلون ركضاً وطيراناً فى كل ناحية ، وهم يصرخون فرقاً حتى أصبحوا أثراً بعد عين ، اقترب منه بهيئته البشعة ، أخذ يربت على كتفه بقوة وهو يقول فى زهو وفخار ، ويضحك كالمجنون :

- لقد كنت واثقاً فيك منذ البداية يابن الملعون ، هيا معى فالفرصة مواتية الآن لنفعل شيئاً عظيماً .

ذابا معاً فى جوف الظلام الدامس الذى تحول بغتة إلى كتلة بركانية هائلة شديدة الانفجار !!!.

●●●

« الرقص فوق السحاب الأسود»

عندما تقارع كؤوس الليل كؤوس النهار أكون قد قطعت كل صلة بىّ، كجثة هامدة أرتمى فى نعشى الفاخر ، أُساق مترنحاً إلى وسادتى وفراشى الوثير ، يدُ ما تسحب علىَّ ملاءة حريرية فى زرقة السماء الصافية ، ثم تمطرنى بأحلام كئيبة تخنقنى ، وتطاردنى ، كطائر ذبيح فقد جناحية تحملنى السحب السوداء إلى عالم مجهول ، أتهاوى إلى قاع بلاقرار ، أصرخ وأقاوم دون جدوى ، أهب مفزوعاً وغارقاً فى العرق ، أنفاسى ثقيلة كجبل أدفعها دفعاً من أعماقى ، أصرُّ الألم فى ثنايا قلبى ، أخفية بعيداً فى الأعماق ، أهيل عليه كل قدراتى على النسيان .

مثقل أنا بهذا الجسد العملاق ، فى حُلة فاخرة أرتمى مثل دمية خشبية ، أقرر ككل ليلة أن أقود سيارتى ذات المقابض الذهبية بنفسى ، يأتينى صوته الحانى المهذب من وراء خصلات شعر شاربه الزهراء ، أجيل النظر فى حنايا وجهه المريح ، وأسمع كلماته التى تنبعث كرغوات صورة قديمة مترقرقة على صفحة نهر متلاشٍ :

- لست على مايرام فيما يبدو يابنى ، دع لىّ القيادة الليلة .

نفثات الدخان المتصاعدة ، وومضة مرتعشة تخط قوساً يتلاشى فى ضوء السيارة الخافت ، ألوك مؤخرتها بين شفتي، وكأنما جثمت فوق صدر كلماتى بأنفاسها الساخنة ، اكتفيت بابتسامة باهتة وإيماءة برأسى ، ثم انطلقت أغرق بسيارتى فى أعماق الليل الداجى الشديد الوحشة ، وهو إلى يمينى ويسارى وفى أعماقى قد عقد يديه عند صدره فرقاً من نزق السرعة الجنونية .

كنت طوال تلك الأمسية الساهرة أسقيهن قبلاتى ، وأتبادل نفسى بين أحضانهن الدافئة ، ألقى برأسى إلى الوراء ثم أطوحه إلى الأمام ، وفجأة يزداد لهيب الإيقاع مع خطواتى المتراقصة فوق أحلامى ، السحاب الأسود ، كابوسى المزعج ، أرتعب ، تضمنى قبضة الخوف ، أرتمى فى عينيها الساحرتين ، تعاود خطواتى الرتابة ، وتسكننى هدأة غريبة ، تمد شفتيها الحمراوين كالنبيذ المعتق مع خيط هواء دافئ فى أسفل ذقنى ، تلفنا غلالة من ضوء القاعة اللبنى ، ثم تستتيم الموسيقى الصاخبة مع خطواتنا الرتيبة شيئاً فشيئاً ، تصبح حالمة ، أجيبها وأنا مغمض العينين ، ألتقط أنفاسى ، وأستعيد سكينتى وهدوئى :

- هاأنذا أمامك ، لست بعيداً عنك كما تخالين ، وتذكرى أنك ترفضين تلبية دعوتى دائماً .

همست وأناملها الرقيقة تعبث برقة فى خصلات شعر رأسى السوداء المدهونة بمادة البرلانتين التى تجعله لامعاً للغاية :

- صدقنى أنت معى بجسدك فقط .

صمتت برهة ، ثم أردفت قائلة ومصارع الكلمات على أطراف لسانها القرمزى تترآى :

- إننى جد تعسة الحال،أنت أكثرت من وعودك،وأنا أصدق.

تنفست فى أذنها ، قلت وشذى عطرها الفواح يسكرنى ويذيبنى سحراً وشوقاً ، أزداد تلهباً فوق تلهبٍ ، ضممتها بقوة إلى صدرى المفتول :

- ألاتعجبك هذه القوة الفحولية ، ألاتلبين دعوتى ؟! ، التى تتوق إليها كل صويحباتك هنا .

دفعتنى إلى الوراء قليلاً بيديها ، قالت وقد خالجت نظراتها حدة لامعة :

- أنت تكاد تقتلنى .

- سوف تتحملين كلما غاصت أعماقك فى أعماقى المكتظة بالذهب والألماس .

- أنت تهيننى

قلت بسخرية شديدة آلمتها :

- وماذا تنتظر ساقطة مثلك ، وفى مكان مثل هذا ؟!.

قالت وهى تصفعنى بعجزِها الجلى ، فى الطريق إلى صفحة وجهى كانت يدها مشلولة تماماً وكأن شراييها قد تصلبت :

- أيها الجبان الوقح .

دفعت يدها بقوة إلى جانب ساقها :

- سوف أبتاعك من سوق النخاسين لو أردت ذلك .

عن طريقى أزحتها بوحشية ، وقلت متهكماً :

- هه جاء دورك أيتها الغانية الشريفة .

أخذت تنهض من فوق ظلها المفترش أرضية القاعة ، وتلملم أشلاءها العارية ، تصحبها نظرات مشفقة تزدرينى ، كانت رأسى تدور بوجهه المتأزم ، ونظرات العتاب الحارقة ، لا أدرى كيف أسقطت الصفعة الوهنانة مثل هذا الجسد العملاق ، احتملنى فوق ظهره المحنى ومضى ، ويالهوانى النظرات الساقطة تكاد تلقى بنزيناً مشتعلاً فى سبيلى .

- غاضب أنا منك .

قلتها وأنا أستدير ملتفتاً بعصبية من أمام المرآة ذات الحواف الذهبية المطعمة بفصوص من الأحجار الكريمة :

- نعم كم أنا غاضب منك ، كل ليلة تصحبنى إلى هوان جديد، وإلى مصيبة أشد مرارة من سابقتها ، ماذا تريد أن تفعل بىّ بالضبط .

رمقتنى دهشة وهى تقدم لىّ فنجان القهوة باللبن ، ساخنة إلى حد ما ولكن ليس كما ينبغى وأحب ، أمسكتها بيدى من أذنها ، أسمعتها رشفاتى وهمساتى ، لحظات وفرغ الحساء ، بعد مقاومة محسوبة وبمقابل زهيد ، همست ساخراً فى نفسى منها :

- إنه أغلى فنجان قهوة فى الوجود تقدمه شغالة لسيدها .

لحظات وأرتعش كالمحموم ، أتفصد دماً ، وكأنما انسلخ من جلدى ، أصرخ فى أعمق أعماقه حتى يسمعنى :

- أنت جد تفعل أشياءً مخجلة كما لوكنت تقضى حاجتك عارياً أمام الناس .

صفعنى بيد الصمت الرهيبة ، تكورت عيناه بصورة إبليسية مرعبة ، يأمرنى :

- هيا ، لاتتمرد ، سوف أمضى بك ككل مساءٍ إلى ذلك الماخور العفن .

- ولكننى قررت ألا أذهب مرة أخرى إلى هناك .

- اخرس .

أكاد أسمعه وأنا رابض فى السيارة ، الحيرة تقتلنى ، ويتجاذبنى من كل أطرافى القلق والتردد الشديد ، سألته وأنا أقاوم المقود الذى يمسك به بعصبية مفرطة :

- ألا تعرف لنا مكاناً آخر ؟.

قال يفاجئنى بحضوره الأثيرى وهو يخفى ابتسامة ما وراء شاربه الكث الأبيض كندف الثلج :

- لا أعتقد أننى أعرف شيئاً يرضيك ياسيدى ، ألا تبقى معنا هنا فالأمسية الليلة قمرية رائعة .

ثم راح يرنو بناظريه بعيداً وراء الأفق الصافى ، يستقى روعة جمال البدر الفضى فى محياه المتقادم .

تتزلزل بىّ فجأة الرغبة فى الخلاص ، كانت كالومضة المتألقة فى الأفق البعيد ، لاتطولها يداى ، تختفى شيئاً فشيئاً ، أقرر بعصبية وضيق شديدين :

- سأقود سيارتى بنفسى ، لا ، بل تعال أنت ألست سائقى من زمن جدى القديم ، ألست خادمى المطيع كالكلب .

اكتفى بنظرة عتاب باطنة ، تحولت ثورة عندى ، دفعت رأسه بكعب حذائى ، ترنحت بنا السيارة ترنحاً مثيراً فى عرض الطريق وأنا أجيبه :

- نعم أيها الغبى إلى أقذر مكان فى الوجود ، ثم إيِّاك أن تنظر لى فى المرآة هكذا ، حطمها أو أحطم رأسك اللعين .

أومأ برأسه مستسلماً لطلبى ، أسمع صوت دمعاته يتحدرن من عينيه فى عيني ، أغلقهما وأغمغم بكلمات متقطعة :

- عندما ينتشر السحاب الأسود بعد الكأس الأولى سوف أنسى كل شئ ، نفسى ، وأنت أيضاً أيها الزومبى العجوز .

قبل أن تفلت من قبضة يدى جذبتها بشدة :

- من تظنين نفسك ، لا أصدق أن شرائف النساء يمكن أن يتواجدن فى مثل هذا المكان البغيض .

- قد أكون فى المكان الخطأ حقاً ، ولكن من يدرى فربما أكون مبعوثة العناية الإلهية إليك يا .....

قاطعتها بحدة :

«أريد الإجابة فقط على سؤالى لا فلسفته ، لِمَ ترفضين عرضى إذن ؟!.»

- نعم أرفضه بكل مافيه من إغراء وتهديد لأننى لست كما تظن ، إننى أحبك حقاً ، أنت وعدتنى كثيراً ، ولولا أننى ساذجة أصدق كل شئ.....

قاطعت نفسها بنظرة آسية وتنهيدة ألم ساخنة ، ثم أردفت قائلة بلوعة شديدة :

- لما كنت فى هذا المكان القذر الآن .

- للمرة الألف أكرر عرضى ، رباه أى امرأة أنتِ ، سلى كل زميلاتك ماذا وجدن عندى .....

- إلاى .

حاولت عاجزة أن تنفلت من قبضة يدى الطاغية ، قالت فى شجن :

- عرضك يعنى أنك تشترى ثم تبيع .

- فارغة هذه الزجاجة مثل رأسك .

جاءنى النادل الأبله على عجل وهو يحمل زجاجة النبيذ الذهبية ، قلت لها محاولاً تليين نبرتى هذه المرة قدر الإمكان :

- اجلسى ياقطيطتى الساحرة ، ربما بعد هذه الكأس المنعشة تقبلين .

أجلستها نظراتى التى رسمتُها متوسلة ، قلت فى تحدٍ بادٍ ولكن بصوت رقيق :

- ألاتعلمين أننى أنال كل شئ جميل تمتد إليه عيناي .

- هيه ، عيناك .

- حمراوان مثل شقائق النعمان ، أعرف .

- بل ساحرتان فى لون عيني تقريباً ، أليست صدفة غريبة حقاً ، الرمادى لون نادر للعيون .

قلت مستخفاً بكلامها ، وقد رحت أصب من رأس الزجاجة فى فوهة الكأس المتسعة صباً جنونياً :

- لا أرى أى تشابه بيننا ، وأقصى مابيننا من خلاف يكمن فى رغبتينا ، وشتان مابينهما من فارق .

- تذكر كم كنت لطيفاً معى فى البداية ، كن صادقاً مع نفسك ولاتخدعها ، لماذا تفكر فى كيفية للخلاص من واقع ، وتعجبك أوهام البداية الحيوانية ، حبيبى ، أنا أود أن أمنع هذا الفراق إلى الأبد .

شردت بناظريها بعيداً وهى تنبس بصوت دافئ عذب :

- فكر فىّ بطريقتى أنا لابطريقتك أنت .

كنت أشعر أن غمامة دكناء قد حطت فوق رأسى مثل الداهية، قلت لها وقد نفد صبرى ، وبدت الكأس تتحطم بين أصابعى المرصعة بالجواهر والألماس :

- رغبة واحدة ونختلف !؟.

كانت الكأس بعد الخامسة باثنتين أو ألف لا أدرى ، طوحت به بعيداً على الرؤوس يتحطم ، لايهم ، صرخت فيها وقد اكتسحها الخوف التام من هيئتى الشيطانية :

- بل الآن ، وبرغبتى لابرغبتك ، أنتِ ساحرة شريرة تلبسين رغبتك ثوب قديسة بتول ، ولكن هيهات وألف هيهات .

تقدمت منها ، رحت بيدي اليمنى واليسرى معاً أطوق جيدها الأتلع ، أخذت فرجة الطوق تتسع شيئاً فشيئاً عند النهدين ، ثم اختنقت عند خصرها الدقيق ، نزعتُ عنوة عن إهابها الناصع قطعة قماش صغيرة من فستانها الوردى الساخن ، سترت مسرعة بكلتا يديها لاشئ ! .

كانت يداها كلتاهما فى قبضة يمناى ، تسمر بها العجز تماماً فى وسط حلبة الرقص ، بدت معقودة اللسان ، مبهورة العينين والأنفاس ، هتفت صارخاً ، الكل كان منتبهاً وملجماً بالدهشة ، والنظرات مصوبة إلى أعلى نقطة ممكنة فى سماء القاعة ، حيث كُنتُ أفرك القطعة القماش بين أصابع يسراى :

- سوف أبتاع منكم هذه الخرقة البالية بأى ثمن .

تحرك رجل خبيث الهيئة نحوى ، وهو يفتح فمه عن آخره فى دهشة مفتعلة وقال :

- سيدى إن خمرنا ليس مغشوشاً إلى هذه الدرجة ، فهل أصابتك جُنَّة ؟ .

- بل أتحدث إليكم من عقل رأسى المتزن مباشرة ، فهل تبيعها لىّ أنت شخصياً وزد إن شئت إلى ماتشاء.

- هل أنت جاد !!؟ .

- ومتى رأيتنى أهزل أيها السمج .

أطرق برأسه مغرقاً فى التفكير ، فيما كانت نظراته الحيرى تتردد من تحت لتحت بينى وبينها ، البائسة كانت عاجزة تماماً عن التخلص من قبضتى الرهيبة ، أخيراً نطق بصوت مبحوح وهو يتأمل حقارة المكان المتواضع من حوله ، ثم نكس رأسه قائلاً وهو يشير إشارة خفية لحراس الملهى المحدقين بىّ من كل ناحية كى ينسحبوا إلى الخارج فى صمت :

- لابأس .

دوت صرختها الرهيبة فى أنحاء الصالة الغارقة فى الصمت العبثى ، قلت دون أن تهتز شعرة واحدة فى مفرق رأسى :

- بل أريد أن أسمع الموافقة منكم جميعاً .

ضجت الساحة بالأصوات الثملة ضجيجاً هز جنبات المكان، ضحكت ضحكة مجلجلة ، أمرتهم صارخاً ومتأهباً لعملٍ ما :

- غلقوا كل الأبواب إذن،الزموا الصمت،وصفقوا إن شئتم .

دفعتها أرضاً ، تقدمت نحوها ببطء كالثور الهائج ، ورغبة أخرى تطغى على كل ماسواها بداخلى ، كانت عيناي تطقان شرراً فظيعاً ، وتخفيان كل معالم الإنسانية فيهما ، صرخت فى وجهها فيهم :

- أفسحوا الطريق قلت ، عند الجدران المتساقطة التصقوا، ولامانع من أن تلتهمنا أعينكم الخبيثة .

كفأر مذعور نهضت ، راحت تتراجع القهقرى ، وتتوارى وراء حلقات الهواء الفارغة ، وذراعيها البضين ، وتتلفت كالمجنونة باحثة عن مفر ، وربما عن أى شئ حاد توقفنى به أو تقتلنى به !، وتزيح خصلات شعرها الذهبية المصبوغة عن عينيها الرماديتين الفزعتين، وشفتيها المرتعشتين اللتين لم تتوقفا عن الاستغاثة والصراخ لحظة واحدة .

قلت متحدياً لفريستى :

- لامناضد ولازجاجات فارغة ، ولامخلوق يمنعنى عنك الآن، هناك من يستطيع أن يشترى صمت العالم ليثير الجلبة التى يحبها، ويرقص الرقصة التى تعجبه وحده .

صرخت بعلو حسها مستنجدة ، كانت تصطدم بالأشياء من ورائها ومن حولها :

- لا ، لا ابعد يديك عنى أيها الحيوان الدنئ .

بين يدي كانت تتملص منى ثم ترتد إلىّ فى دائرة مغلقة رسمتها بذراعى حول خصرها المرمرى ، كانت لحظة تكاد تتصب لها الجدران عرقاً ، عثرت قدمها اليسرى عند الدرجة الأولى من درجات مسرح الصالة ، اختلت الأخرى ، هوت وقد تمزق الفستان تماماً ، قلت وأنا أسحبها من يدها ورجلها إلى أعلاه :

- حسناً ، ليتم العرض فوق خشبة المسرح .

أردفت بعد قليل قائلاً بنبرة يشوبها استهزاء ثم غرور ، فيما الحضور يتغارقون فى الصمت والقلق الحذر :

- لست أدرى علام تقاوم امرأة مثلك رجل مثلى ! .

خارت قواها تماماً ، كانت عريانة ، مسجاة أمامى كجثة هامدة تتنفس الموت ، وتراقبنى بعينين كليلتين غائصتين فى ظلام المجهول، فجأة أخذت أمطر الساحة بأوراقى الكثيرة ، مختلف ألوانها ، والسكارى يتهاوون ، أرى من هم على شاكلتهم فى كل مكان أحط فيه برجلي ، يلزمون الصمت تماماً حيال الكثير من الإجراءات الحياتية الخاطئة ، أصرخ بصوت عال بدا وكأنه ليس لىّ :

- عليكم اللعنة ، لاشئ يستعصى فى هذه الحياة على الشراء، ولتنهار الأبراج العالية ، ولتتلوث المزروعات ، ولترتفع الأسعار إلى حد الجنون والجشع ، ولتعمى الأبصار ولتخرس الأفواه والضمائر إلى الأبد ، ولتذهب كل القضايا الإنسانية الكبرى إلى الجحيم .

كنت النقيض لحظتها ، أتكلم كثورى ، وأتنازل كثور عن ملابسى ورابطة عنقى ، وكانت الأنفاس الساخنة تقرع بعضها بعضاً فى ضيق مكتوم ، وضحكات ثملة خافتة تأتينى شاردة من هنا وهناك كأضواء الساحة الحمراء المقبضة .

بدأت أظلم فوقها ، أتضخم فى عينيها شيئاً فشيئاً ، أصبحت كل شئ فيهما ، كانت تقاوم ميتة ، فجأة سقط دوار سخيف فوق رأسى ، آلمنى بشدة ، صرخت متأوهاً ثم فيه وأنا أركل الهواء بذراعى وقدمي المتطايرين فى الهواء .

- أنزلنى أيها الحيوان الصعلوك .

كانوا يضحكون منى ، ويلوحون لىّ وكأنما عادت إليهم الروح من جديد ، راحوا يمشون فى أثر رأسى المتدلى فوق ظهره المقوس ، أخذت أبصق فى وجوههم ، وأقاوم بيدي الخائرتين الخروج متشبثاً بحافتي البوابة الكبيرة ، ركلته فى بطنه بركبتي، صرختُ متألماً ، استدرت برأسى الساقطة نحوه وقد توشحنى الذهول والهوان :

- لقد جعلتنى أضحوكة لهم ، ضيعتنى ، هزمتنى .

ألقى بىّ فى المقعد الخلفى للسيارة ثم انطلق بنا كالريح ، كانت شفتاه تصدران مصمصة حزن بين الفينة والأخرى ، من وراء شعيرات مبيضة تقاطرت عليها الدموع لاح لىّ فى المرآة أمامه ، قال بعد عناء وهو يغالب حشرجة فى أحباله الصوتية ، ويمسح بظهر يده جانب وجهه الأسمرالمتغضن الذى تلاشى فجأة كالسراب:

- سوف أذهب بك إلى مكان كم كنت أتمنى أن آخذك إليه بنفسى منذ زمن سحيق يا .....!! .

ثمة أشياء تتطاير وتتهاوى ، وصرخة مدوية يتردد صداها فى أحناء الجبال العالية التى تشق بهامها جموع السحب السوداء،

البعـض يقـول إنـه رد فعـل طبيعـى لمـن يريـد أن يُكفِّـر عـن خطـأٍ مـا.....!!

●●●

« الحب .. يتنفس رصاص»

هنـاك علـى المـدى الغربـى تمـوت الشـمس ، الليـل يزحـف بـكل مافيـه مـن وحشـة وصمـت ، هـدوء طويتـه التحفـز والرعـب ، بـين الفينـة والفينـة تصـك أذنـى صرخـات الأشـباح الخضـر وهـى تدمـدم، الـكلاب تطلـق نباحهـا لدقائـق ثـم .....؟ ، يعـود الهـدوء والقلـق ، الطيـور والحيوانـات جيفـوا مـن حولـى ، الغربـان لايكـف لهـا نعيـق، الأعـين المكروبـة تتـلألأ فيهـا قطـرات الدمـع ، أتألـم ، أتعثـر كلمـا حاولـت المسـير، أجسـاد الأحيـاء تـكاد لاتفرقهـا مـن سـواد الليـل أصـوات غطيطهـم ديـدن السـكون .

مـرة أخـرى أحـاول الانسـلال بجسـدى وأفكارى ، كنـت أحيـا فـى دار كبيـرة ، علـى إحـدى حوائطهـا وشـيت اسـم أخـى بقطـرات من الدم القـان ، دمـى ، لحقـت بـه شـقيقتنا الكسـيحة ، تركنـا المنـزل كرهـاً، أنقاضـاً بـلا أمـل ، دموعـاً بـلا أعـين ، اضطررنـا إلـى اللجـوء هاهنـا، القـدس تلـوح مـن بعيـد ، علـى مشـارفها انسـلت قطـرات مـن النـور الباهـت ، ترامـت خلفهـا أشـباح منـازل قـد دفنـت فـى ملابـس سـود ، يـد أبـى المعروقـة تشـير ناحيـة الشـرق ، « يبـدو محزونـاً فـى الوقـت الـذى عاصـت فيـه وجهـى تقاطيـب الغضـب : مسـتحيل ! ، آليـت علـى نفسـى ألا أفعـل ، اتسـعت الشُّـقة بيننـا ، صرخـت بوسـع طاقتـى لمـاذا

لانتفق !، وبقيت وحيداً ، الليل يبدى معاندة غير مكترث لما يدور فى جوفه ، الشمس أضحت رهينة فى كنفه المشئوم ، أراقب كل ذلك بينما زفرات غضبى تتلاحق وكأنها الأمواج ، وعن كثب ارتضيت صخرة رابية ، حاولت الاسترخاء ، غمست رغباتى فى طلل من الصبر ، أشعلت لفافة من التبغ الأمريكى الفاخر ، كنت قد وجدتها بجوار جندى صريع ، ومضاتها ترتعش فى الظلام تصاعدياً تنازلياً ثم تصاعدياً ، ألوكها بين شفتى بعصبية ، أمنع عنها الخروج فتخوننى إرادتى ، أسعل بشدة ، ألمح الدخان يرسم جنياً أسطورى الهيئة ، أقذف بها تحت قدمى ، أسحقها وليكن مايكون .

أغمضت عيناى ، طيفها يتسلل إلى مخيلتى تدريجياً ، أدفعه بلاجدوى ، يتملكنى ، هى أمريكية الصنع أيضاً ، لها جمال ونكهة يفوقان أفخر أنواع السجائر وكل الأشياء التى تذهب بالعقل ، وتخدر الحواس تماماً ، معها أنسى أننى من الموتى ، نلزم الصمت مادامت شفاهنا تتناجى ، أتراجع ، يلحون علىّ ، لاشأن لك بها ، يذكروننى بالشئ الذى لايغيب عن خاطرى البتة ، أصرخ منهاراً :

- لم أنس أخى أو أختى ، بل اخوانى واخواتى جميعاً فى القلب والعقل ، ولكنى لا أستطيع ، لا أستطيع .

أطالع صوره الرهيبة على صفحات الجرائد والمجلات ، وجدتنى ضئيلاً أمامها فمابالى بالأصل ، تمتمت هامساً الموساد!، ارتعبت ، تخلفت عن مقابلتها مرة ، مرتين ، وثلاث ، فوجئت بها فى المكان الذى لايعرفه أحد فى العالم غيرنا ، ملأت ابتسامتها جوانحى غبطة ، ساءلت نفسى أيهما غالب «العداء» أم «الحب»؟، همست جميلتى بشفتيها الحمر فى أذنى :

- أحبك .

لم يبهرنى تصرفها ، أمسكت يدها ، ندت عنى ارتعاشة ، رميتها بما أضمره فى نفسى :

- أمؤمنة بقضيتى ؟ .

- بل مؤمنة بك .

نظراتى المتفرسة اغتصبت إلى شفتيها الطريق ، أردفت قائلة:

- لايهم من تكون ، لايهم من أكون ، الحب هو الأهم .

لم أصدق نفسى ، تساءلت : « ألَه حقاً مثل هذه القدرات ، أيذيب الفوارق ، وينسف الحدود والعداوات ، ولكن .....».

انصرفنا على أمل اللقاء ، تماوجت فى باطنى الكثير من الأحاسيس المتباينة ، فجأة أشعر بالندم ، وأقرر الانسحاب ، ومرات أتنسم إشراقات الأمل اللواح : « لِمَ لا فمن يؤمن بك يؤمن بكل شئ يخصك ، هيه هيا أيها المقدام» .

غمزنى صديقى ، رفت على جانب شفتيه ابتسامة غامضة، تمتم :

- جميلة ، رائعة .
- أحقاً ؟.
- أجل ، لو أنها فى قبضتنا .
- قبضتنا ؟! .

صدمتنى رغبته ، غضبت ، كتمت ثورة عنيفة اندلعت فى داخلى ، لكزنى قائلاً بحدة بالغة :

- لاينبغى أن يكون لك أكثر من حب،لاتضيع صيدنا الثمين.

كلماته قاتلة ، توارى عنها قلبى وعقلى تارة واحدة ، تحيرت ، تساءلت : «حب وغدر ؟!» ، محال ، ليته كان يهذى .

الحقائق المبهمة تزعجنى دائماً ، ويقتلنى أن أتخذ موضع المقامر فى ساحة الرهان ، عرائس الليل تتراقص أمام عينى ،

طوعت البنان نحو إحداهن ، أصبتها فى مقتل ، افترشت صرختها جنبات صدرى ، دموعها ساحت على وجنتى ، آلمتنى ، قاومت رغبة برغبة ، إنفلت فى استخذاء ، لمحته وهو يبصق فى ظهرى .

اتفقنا لا أذكر متى ، قبض على كلتا يديه القويتين ، دق بهما الهواء ، مزقه ، هتف صارخاً :

- اليوم سيفرج عنه وعن الكثير من إخواننا ، أكيد .

جاوبت ابتسامته بأخرى لاهُوية لها ، دلفنا معاً فى خفة ظبيين بريين نحو المكان الذى تواعدنا على اللقاء فيه دائماً وأبداً ، كنا نحلم ونمنى أنفسنا بذلك ، تمتمت ذهبية الشعر قائلة وعيناها الخضراوان لاتبرحانى لحظة :

- لنكره كل شئ حتى نحب أنفسنا أكثر .

دمعت عيناى ، تنهدت شاهقاً ، انتبه إلىّ ، ضرب صدرى بصفحة يده التى لم تبرأ بعد من رصاصة قناص مكير ، تأوهت، كتمت صراخى :

- أوجعتنى .

عيناه تبرقان شذراً :

- اثبت ، لاتكن ضعيفاً .

امتثلت لأمره رغم كل شئ ، صوبت الطرف نحو ضالتنا المنشودة وقلبى الخفقان ينتفض ثائراً بين جنبى ، اللحظات تتابع ملتهبة ومشحونة بالتوتر الرهيب ، أتقدم على مضض ، أرجع القهقرى مكلوماً مضطرباً ، يشدنى للأمام ، همساته الصارخة تدفعنى نحوها دفعاً .

حين تقدما معاً ببطء شديد ناحية الهدف ارتاعا ، صدما بهم !، الجو ملبد برائحة ما كريهة ، صرخ فيه صاحبه أن يلوذا بالفرار بسرعة ، جاوبت صرخاته الأصداء الفائرة :

- كمين !! .

انشقت عن شفتيها الداميتين ابتسامة هازئة للغاية ، الرصاص يتطاير من كل اتجاه ، فغرت فمى دهشة ، وهامته تميل للأمام، وتتراجع للخلف ، هوى فوق ظله الدامى ، احتضنه طويلاً، ثم ذابا معاً فى الثرى .

الموت ينظر نحوى شذراً من فوهة بندقيتها الآلية ، انطلقنا معاً فى سباق مع الزمن .

●●●

«أَيَا توشكى»

راح يعتدل فى جلسته على حصيرة مهلهلة ، تراصت عروقها الصفصاف الجافة جنباً إلى جنب ، وهو يمسح وجه هيما النوبى الأسمر بنظرة متأملة دامت للحظات ، ثم قال بنبرة حزينة :

- الحياة هنا قاسية للغاية ، إنها مطوية فى جيبى الآن ، ألستُ محظوظاً ؟.

صمت برهة ، رجع خلالها برأسه إلى الوراء وهو ينفخ مردفاً :

- هيه كان الزحام شديداً ، وموظف السفارة أخبرنى بأنه لم تبق لىّ غير بعض الإجراءات القليلة «هه» وأطير إلى جنة الشقراوات .

تبللت بالدموع نظرات هيما الرانية إلى الوجه الآخر من الشمس ، فيما كانت الريح المصفرة تعبث بأطراف الشملة الداكنة الحمرة المطوقة لعنقه وكتفيه ، والمنسدلة تدريجياً حتى العود القديم الكائن فى حجره ، يزيح طرفها عن عينيه اللتين كانتا تسددان نظرة آسية ناحية الحجرة الكالحة الزاوية على السطح ، والمستلقية فى خشوع الرهبان بين أغصان شجرة الكافور العالية،

وقد انبعث مع بصيص الضوء المتسلل من شق الباب الخشبى الموارب صوت المذياع وهو يردد أنباء حزينة .

مصمص هيما شفتيه ، وقد تعقدت أساريره ، وبانت الرهبة على ملامحه وهو يتمتم بنبرة تنم عن ثورة غضب عارمة تمور تحت الجلد :

- المجانين يحفرون القبور تحت أقدامنا .

ترقرقت الدموع فى عينيه المنطفئتين ، ثم استطرد قائلاً باندهاش :

- ماذنبى ، بل ماذنب طفلتى البريئة ، طفلة كل المصريين، التى كانت واقفة أمام مدرستها ، إن عقلى سوف يشت ، آه ياشيماء[1] !.

راح يضرب كفاً بكف ، ويقلب ناظريه فى كل مكان :

- البوم والغربان السوداء لاتنعق إلا فى الخرائب والبيوت المهجورة ، هيه وأنت تريد أن تمضى مثل غيرك أيها الشاب .

- لقد يئست ، اننى ضائع كالريشة فى مهب الريح .

نظر هيما إلى الشاب عزت المصرى نظرة كلها إشفاق ، مد يده نحو ساقه ، يتحسس فى حسرة السنوات التى خلت ، والواقع

الأليم الذى جعله يترنح هكذا كلما أراد أن يسير ، فى حين بدت عينا الشاب تتفحصانه بحزن شديد ، فقال وقد انشقت عن صدره الضامر تنهيدة ساخنة :

- هو ذا الجنون بعينه ، ماأرق جَلَدكم أيها الشباب !.

صمت لحظات بدا فيها شارداً ، ثم قال وهو يحدق فى عينيه :

- الدماء تفسد لوجرت خارج عروقها .

كانت نظراته الحيرى قد ارتشقت بالفراغ الذى تساقط ظلاً بلا أصل تحته ، مما دعا هيما إلى الابتسام قائلاً ، وهو يسحب الريشة من بين خصلات شعره البيضاء الخشنة :

- لست حزيناً لفقدانها ،لأننى يوم فقدتها كنت أعرف السبب.

كانت أنفاس هيما اللاهثة تقرع سمعه ، وقد شرع يدندن بصوت شجى كله شجن ، تند عن أصابعه السمراء الناحلة ارتعاشة زمن جاف حمل صاحبه إلى حافة الهاوية ، تعزف على أوتار قلبه الممزقة لحناً قديماً ، فيما بدا منكب الرأس والصدر على عوده الخشبى ذى المقبض الأبنوس والأوتار المشدودة بحساب:

- أَيَا توشكى ..

أنا هالى ..

أشرى يا ؟..

سكار كالاجا ، أَيَا توشكى (٢) ..

توقف فجأة ، زفر فى ضيق باد ، وانتقل قافزاً إلى الناحية الأخرى متحاملاً على ساقه العرجاء ، وقد تراءت له فى مخيلته الصورة شاحبة ، ارتعش فى مكانه ، بدا وكأن شيئاً ما قد تقمص جسده ، وصوته ورعشاته ويعود به القهقرى ولاحيلة له بالمرة :

- هيه توشكى .

كانت الأرض تحت قدمى الطفل الأسمر البسيم تنبسط تارة وترتفع تارة أخرى ، وهو يجرى لاهثاً بين أشجار النخيل العالية، تلفح بشرته اللامعة أشعة الشمس الذهبية ، توقف برهة وهو ينظر إلى الوراء ناحية المعبد الفرعونى القديم وقد غاصت قدماه فى تلال الذرة المنثورة كالذهب ، ابتسم وهو يعدل طاقيته القطنية المزخرفة على رأسه ، والتى كلحت واصفرت من امتزاج العرق والتراب بلونها الأبيض الذى كان زاهياً ، ثم راح يناديها بصوت عالٍ قاصداً إغاظتها :

- أنا هنا ياكديسه [٣] .

راحت الطفلة السمراء المليحة المحيا تواصل مطاردتها له ، كان يسبقها بخطوات ، وقد بدا يقفز كالأرنب السريع متحاشياً الزكائب الخيش الملآنة بالبلح السكوتى والابريموده والقراقودة ، والمتراصة فى منظر بديع على مرمى البصر بين آجام النخيل، يفلت منها بالكاد ضاحكاً ، وقد أمسكت بجذع النخلة بدلاً منه، كانت أمه فى تلك الأثناء منهمكة فى تخليص حبوب الذرة الصفراء من القناديل ، بجوارها بدت جدته تشد أعواد الخوص الجافة بإحكام إلى بعضها البعض ، وتجرى أروع الألوان فى لُحمتها وسداها وقد شارفت على الانتهاء من صناعة السلة ، قفز الطفل متخطياً كومة السلال ، ثم والده النائم من التعب ساعة المقيل على أكوام الذرة ، ثم صعد إلى ظهر الساقية التى كانت تدور لحظتئذ بعينيها الدائختين وهو يتراقص أمامها ، تخطئه كرات الطين اللدنة التى كانت تقذفه بها ، يضغط على رافعة الشادوف وينثر منه عليها قطرات الماء الندية ، تصرخ ، يضحك ، ومن حولهما بدت على الوجوه السمراء ابتسامة حانية كشفت عن قلوبهم البيضاء الطيبة .

وفجأة أمسكت به فى اللحظة التى دوت فيها قنبلة من الصمت فى أنحاء البلدة جعلت القلوب تتخلع من أماكنها ، اتجهت

النظرات كلها ناحية النهر منتبهة إلى صوت مرعب ، كان رفاصاً أحمر اللون يمخر عباب النهر متجهاً صوب الشاطئ الذهبى ، على ظهره راح النوتى الأسمر شبه العريان يستعد لإلقاء الهلب على المرساة ، وهو يصرخ بصوت كله همه ونشاط :

- هيلا هوب .

كانت الأنفاس كلها قد احتبست فى الصدور ، وهى تتابع فى جزع شديد الخواجة العملاق وهو يمرق كالسهم نحو الأرض عبر لوح خشبى ، امتد طرفه من فوق حافة الرفاص المهتز حتى الطرف الآخر المنغرز فى وحلة الشاطئ ، راح يخطر فى مشيته كالطاووس المنفوش الريش ، حتى رقى رباوة من الأرض ، ثم استوى معتدلاً فى وقفته وهو يهز بيده عصاته ذات الرأس الثعبانية ، أخذ يرامق جموعهم لحظات ، وهو يضغط بشفتيه على طرف غليونه أسفل نخلة عملاقة ، تغمر وجهه شديد الحمرة نظرات الطفل الغاضبة، والذى لم ينس كذلك أن يحمل ذات النظرة اللاهبة إلى رجل قصير القامة غائص لركبتيه فى الصمت الخانع ، وقد أمسك ببعض الدفاتر بين يديه المعقودتين على بطنه ، كان يقف إلى الوراء على يمين المستر مدير مصلحة الرى ، والذى قطع حبل صمت الجموع بصوت هاتف جهورى ذى لكنة عربية عامية كسيرة:

- كله ، كله ييجى يسجل اسمه هنا فى الكشف آند شوكت افندى ، الهكومة هاتعوضكم كتير .

خيمت سحابة من الصمت المشوب بالترقب على أنحاء المكان، مرت فترة طويلة ، لم يتقدم أحد لتلبية مطلبه ، راح يعيد الكرة مرة تلو مرات ، جن جنونه عندما أحس بنيران ثورتهم الصامتة تسرى فى عروقهم ، وقد جثوا أمامه على عظام ركبهم النحيفة الناتئة التى انغرزت فى الأرض الطينية ، قال غاضباً وقد تلونوا فى عينيه بلون الطين :

- ياللا يا هيوان انت وهو مستنيين إيه ، النيل ها يغرقكم، مفيش فايده ، لازم كله يمشى من البلد .

انطلق صوت صارخ شق أجواز الفضاء من بين الجموع ، كان للشيخ عبدالواحد المجرابى :

- مشروع تعلية الخزان لازم يقف ياخواجه .

كانت هذه الكلمات قد ألقت بشبح ابتسامة ساخرة على شفتى الرجل الإنجليزى ، الذى هبط الربوة العالية قافزاً نحوه حتى التزمه تماماً ، وبنظرة حادة أخذ يتفرس فى وجهه الأسمر لحظات ، ثم قال وهو يداعب لحيته الذهبية بطرف إبهام يده اليسرى ، وهو ينفث فى الوقت ذاته غلالة داكنة من دخان غليونه فى وجه الشيخ الأشيب اللحية والحاجبين :

- موش ممكن خبيبى ، فاهم .

ثم أردف هامساً يريد أن يبطنه بصفة خاصة سراً ما :

- فى تأويض كويس أوى آشانك شيه أبد الواهد .

قال الشيخ وهو يهش بيده عن وجهه سحابة الدخان الكريهة الرائحة ، فيما كان يحدق بحدة فى وجهه الأحمر ، وقد بدا النيل يجرى هادئاً على مرمى البصر :

- لقد هاجر به الزمان طويلاً ، ولم يبرح مكانه قط كالدماء تفسد لو جرت خارج عروقها .

صمت هنيهة ثم قال بتحدٍ رصين :

- الكلاب عادة لاتصدق أنها كلاب ولو كانت تُلقى بالحجارة، صدقنى لن يبتل غير الذيل فقط للعملاق الكبير .

كانت المنشة تحت إبطه قد تحركت فى سرعة البرق الخاطف لاطمة وجه الشيخ المجرابى ، ثم استدار بعصبية بالغة وقد أطلق نظراته المفترسة مع صرخة غضب مدوية زلزلت جنبات البلدة الواجمة :

- شطب مصرى هيوان ، انتم أهرار خلى الطوفان يبلعكم ، مافيش فايده . مفيش تأويضات .

ثم مضى ميمماً شطر النهر على أنقاض نظراتهم الممتلئة بالخوف من المصير المجهول ، تَرجُمه أياديهم الموثوقة إلى ركبهم بحصيات سبع .

كانت عينا الطفل قد اغرورقتا بالدموع ، وقد لمح الكتلة السمراء ملتفة من حول الأفندى المطربش القصير القامة !، امتلأ صدره بالغضب وهو يرى نظرات الزهو والشماتة تعلو وجهه ، لم يشعر بنفسه إلا وهو يضرب وجهه الأحمر الدميم بحجر حاد الطرف كسكين حام .

ليلتها تكهرب الجو ، ليلة رعب لانظير لها تعيشها البلدة الحالمة، الهجانة فوق جمالهم العالية ، يجوبون نواحى البلدة وقد ألهبوا الظهور العارية بالسياط السودانية المغلية فى الزيت ، من بين شواهد القبور البيضاء ارتفع عويل النساء مختلطاً ببكاء الأطفال وتمتمات شيوخ جف ريقهم من كثرة الدعاء على الظلمة الفجرة المتوحشين، ظل يركض هارباً كالثعلب المراوغ، راح يشق الظلمة التى اكتنفت حقول البلدة التى أخليت تماماً أللهم إلا من القليل، وتخلل بين الديار المبنية من الحجر الأبيض والطَفلة وقد بدت شبه خاوية على عروشها إلا من نعيق البوم ونعيب الغربان ، ذات الطفلة السمراء أخذت تطارده بنظرات ملأى بالهلع والحيرة من المستقبل وقد جرت معه جنباً إلى جنب ، يتوقفان من شدة

الإجهـاد ، تدفعهـم الوسـاوس لمعـاودة كـرة الهـروب ثانيـة ، وقـد تحولـت أشـجار النخيـل مـن حولهمـا إلـى أشـباح تريـد أن تفتـك بهمـا، وفجـأة أحـس بميـاه الغمـر تجتـاح ذاكرتـه ، تجرفـه إلـى عالـم مقبـض، يصرخـان ، يرتفعـان كريشـتين فـى الفضـاء ، تبتعـد عـن صـدره الـذى كانـت متشـبثة بـه ، تزايـل أقداميهمـا الأرض فـى لحظـة وداع أبديـة ، تشـق ثغرهـا ارتعاشـة أسـنان بيضـاء ظلـت تصطـك ببعضهـا البعـض مـن شـدة الوجـل ، فقـد توازنـه وهـو يحـاول باسـتماتة صارخـاً أن يمسـك بيدهـا الصغيـرة ، يقبـض عدمـاً ووسوسـات نفـس واهمـة ظلـت تعذبـه، ولـم تـزل بعـد ، يتـأوه متألمـاً :

- بحث عن قشة نجاة ، ولم يبحث عنها تحت قدميه .

صرخاتهـا كانـت قـد تحولـت إلـى فقاقيـع هـواء فارغـة ، عكسـها ضـوء القمـر الفضـى علـى عينيـه السـوداوين ، نظراتـه المتناثـرة عشـواء فـى كل مـكان تلمـح الأشـباح وهـى تصـارع أيـدى المـوت الهلاميـة ، علـى الطـرف الآخـر مـن البلـدة بـدا الجبـل رابضـاً كحيـوان خرافـى أطـل برأسـه مـن قلـب الطوفـان ، أحـس ببارقـة أمـل تمـوت غارقـة مـع اللـوح الخشـبى المهتـرئ الـذى تخلـى عنـه ، كانـت الأرض قـد طويـت مـن تحـت قدميـه تمامـاً، والزمـان قـد فـرد شـراعه الأسـود الكالـح علـى صفحـة الأفـق السـرمدى ، أفـاق علـى صـورة جـده المجرابـى وهـو يلاطـم الأمـواج العاليـة حتـى رؤوس النخيـل بذراعيـن أسـمرين

ناحلين فقدا حساسية المقاومة ، تغوصان إلى الأعماق مع كلمة فاه بها عفو اللحظة المضطربة :

- إيجيليكا [٤] .

انهلت الدموع من عيني الطفل العجوز انهلالاً هستيرياً وهو يراها تتوارى خلف الأفق الشاحب ، فوراء الزمان المتباعد فأهداب بيضاء متساقطة على أخدود عينيه الخشن ، أخذ يردد بصوت حزين يقطر دمعاً سخيناً ، مع رعشات سبابة وإبهام تعزف على أوتار العود القديم :

- الغُز غرقوها ..

والزول الأسمر أبوقلب أبيض وطاقية [٥].

ماشى فى وسط الزيطه ..

يصرخ يخبط راسه فى الحيطه ..

النيل عمره مايعملها ..

ده ملعوبك يا احمر يابو برنيطه .

ودام الصمت طويلاً ، فيما كان يربت على ظهره المقوس وقد تدانى منه واقفاً :

- لاتبتئس أيها الطفل هيما .

ثم راح يشاركه صمته ونظراته الحزانة فترة من الوقت ، بعدها أردف متسائلاً بغية تغيير مجرى الحديث :

- لماذا لم تتزوج ؟ .

بدا عازفاً عن الرد لثوان معدودات ، تخللتها نظرات ذات دلالة عميقة بعدها قال وهو يتحسس ذاكرته بلسان جاف :

- لقد فقد الطفل ساقه ذات يوم على جبهة الحرب فى القنال ولم يبك قط ، أما اليوم .....

فى تلك الأثناء انتشلته خلجة ما ، وسرت قشعريرة الموت بين ضلوعه ومن خلال شراينه النابضة ، وقد تردد صدى ذلك الصوت الانفجارى الرهيب فى مسمعيه مختلجاً بصوت صراخ طفلة ، ونذير البوم الشؤم ينطلق من حناجر الغضب الأسود ، ارتعد وهو يمسح بقلق جم شعر رأسه الجعد ، ويراقص كأس العَرَقى شبه الفارغة بعينين غائرتين تجتران صورة وجهيهما الأسمر الأبيض الجميل ، فقال مستطرداً بعبوس :

- اليوم كدت أفقد الطفل نفسه ثانية لولا عناية الله .

شرد طويلاً ثم تساءل بدموع عينيه :

- هيه ماأشبه الليلة بالبارحة ، لقد كان وجه المسكينة عند قدمى ولم أتبين ملامحها جيداً ، فتراه كيف كان قبل ذلك .

- جميلة كالقمر ، ولقد شعرت أن من ينظر من خلال عينيها الوديعتين فلسوف يرى عالم طيب ودنيا رائعة ، خيل لىّ ذلك وأنا أتطلع إلى صورها فى الجرائد والمجلات .

- الثعابين الخبيثة يابنى لاترى من أعين قط غير أعينها الدامية .

نهض متوكئاً على عكازه ، اتجه صوب السور المبنى من الطوب الأحمر الملتف حول سطح العمارة العالية القديمة الساجية فى شبرا بالقرب من النهر ، ثم ارتكز بكفيه الأسمرين على حافته الأسمنتية، وراح يمسح بنظراته الثملة ربوع المدينة الكبيرة ، سحب نفساً عميقاً، كان يشعر بدوار سخيف وبالأرض تسحب من تحت قدمه وعكازه :

- ماذا دهاك أيها العجوز الطيب ؟.

قالها عزت دهشاً وهو يراه قد استدار على عقبه وهو يلقى بعكازه أرضاً ، وبانفعال شديد طوق عنقه النحيفة بيديه المعروقتين، وسدد نظرة دامعة إلى صفحة المغيب المشرقية وتساءل باستنكار :

- أليس جنوناً أن يخنق الإنسان نفسه هكذا !!؟.

قال مجيباً وقد أطرق آسفاً :

- بلى أيها الشيخ .

وبنبرة جافة ونظرة ألم مقيته قال له هيما:

- افعل مايحلو لك ، وهاجر كما تخطط ، أو لتذهب إلى الجحيم الأبدى ، أنت حر.

صمت برهة ثم قال مستطرداً وقد شمخ برأسه عالياً ، حتى تبدت أرنبة أنفه الأقنى وهى تلمع مع انعكاس أضواء أعمدة نور الشارع عليها مثل قطعة من الذهب البندقى :

- اليد الصغيرة لايمكنها أن تخنق عملاقاً كبيراً .

انتبه فجأة على دوى هذه الكلمات فى نفسه ، لاحت على شفتيه ابتسامة ناصعة ، شقت جوف الليل المسهد فوق هام المدينة ، استدار قافزاً ناحية حجرته المنزوية فى ركن قصى من السطح ، تخلى تماماً عن عكازه الخشبى ذى الرأس العاجية ، تثاءب تثاؤبة طويلة فبدا وكأنه لم ينم منذ ولد ، راح يتقلب فى فراشه ، ويتهادى على بحر أحلامه اللازوردى ، وقد اختلطت فى مسمعيه أصوات أبواق السيارات وأحاديث المارة فى الطرقات بصوت كلمات أخرى تراقص لها قلبه طرباً :

- سوف تظل فى جيبى لا فى عقلى ، لا أحلم بشقراء لاتحلم بىّ .

●●●

• توشكى قرية نوبية غرقت بعد أن غمرها فيضان النيل سنة ١٩٣٣ أثر التعلية الثانية لخزان أسوان بهدف زيادة المساحات المزروعة بالقطن فى شمال الوادى وبإيعاز من المستعمر الإنجليزى .

(١) هى الطفلة التى أغتيلت غدراً فى حوادث إرهاب التسعينات الشهيرة .

(٢) كلمات نوبية معناها التقريبى : « أنا هالى: كيف حالك»، « أشرى يا: الحمدلله وأنت ؟» ، « سكار كالاجا : مثل السكر».

(٣) كديسه : قطة .

(٤) إيجيليكا : تذكرونى .

(٥) الزول : الولد .

« كانت هنا شجرة»

لا أذكر أن أحداً فى البيت قد غمض له جفن ، فى زاوية قصية من بهو المنزل كانت أمى غارقة فى كى ملابسنا ، تبادل صرخاتنا الفرحة ، وقفزاتنا الجنونية بين المقاعد بابتسامة هادئة، راحت توزعها بحنان جارف على قلوبنا الراقصة ، فوقها كانت جدتى ، تحتويها إطارات مؤطرة بماء الذهب ، تفرد على صفحة وجهها الناصع ابتسامة عريضة مثل الشراع الأبيض .

قطعنا الطريق ركضاً نحو السيارة الزرقاء الكبيرة الواقفة أمام النهر ، الشقاوة والحركة بعثتا فى عروقنا دفء الخريف الصافى، كان شعره أبيض كالقطن عند فوديه ، وماخلا ذلك كان فراغاً فسيحاً، أشرق وجهه بابتسامة عذبة ، بحثنا عنها فى أنحاء السيارة ، تلجلج وهو يُحسِّن من وضع النظارة فوق جسر أنفه :

- إنها فى انتظاركم على أحر من الجمر .

زاغت عيناه ، أخفى تقاطيب وجهه فى ناحية لاتذهب إليها عين ، وضع قرصاً مستديراً تحت لسانه ، ضغط أشياء أجهلها فى دواسة السيارة ، لف المقود دورتين ثم عدله ، انطلقنا ، نام أبى على كتفه ، تدحرجت رأسه على وسادة محشوة بالهواء، اصطدمت

بزجاج النافذة ، أضحكهم الموقف ، إلاى ، لمحنى فى المرآة ، ودمعة ساخنة تنفلت من موق عيني ، تشكلت منها مجموعات ، تتقراهم يداى ، نكس رأسه بحركة مفتعلة ، فضحتها عيناى الغارقتين فى ادعاء النوم .

وصلنا الشمال بالجنوب ، انحنينا يميناً مع الطريق الدائرى المخضوضر ، تذكرت نفسى ، هنا امتطينا الحمار الأعرج ، كنا نتندر على منظره الكئيب ، ومشيته المثيرة للضحك ، طرحنى من فوق ظهره ، غمرتنى مياه المصرف الآسنة ، صَرختْ ، ضَحكتْ ، كان الطريق غاصاً بالفلاحين الطيبين السُمر الوجوه ، بتنا هدفاً لنظراتهم الفضولية ، أخذ الصبية يجرون فى أثرنا ، ويتحلقون من حولنا ، جلاليبهم البالية حُسرت عن سيقان رفيعة صفراء مثل أعواد البوص الجافة ، أعرف بعضهم ، وأحس أن الآخرين كذلك ، كانوا يخصوننى بابتسامة طينية ساذجة ، رشقت عيني فيهم ، خلفهم مساحات خضراء هائلة ، كنا نشق هذه الممرات الترابية ، نستروح النسيم العليل مع شعاعات الشمس الأولى .

كانت يدها المعروقة تتحامل على عكازها الأبنوس والأخرى تغوص تحت إبطى ، تدغدغنى ، وتطرحنى فوق البساط السندسى الممتد بلانهاية على مرمى الذاكرة ، انتبهت ، سمعتها وهى تغادر السيارة :

- ارتد معطفك الجلدى الرطوبة هنا شديدة .

راحت تستقبلنا وهى معنا ، لاتفارق مخيلتى البتة :

- أهلاً ، أهلاً .

تملأ الهشاشة والبشاشة صفحة وجهها الوردى ، انسابت الكلمات من أعماقها فى أعماقنا مباشرة ، خطت خطوة واسعة لتسبقنا إلى الباب الحديدى الكبير ، أخذت تنادى على وحسين وغازى ، خفوا إلينا مسرعين ، حملوا أمتعتنا من حقيبة السيارة الأرجوانية الصغيرة مثل الشفق ، فى نفس اللحظة التى كانت تقبلنا فيها واحداً بعد الآخر ، وكأنها لم تكن معنا ، شفتاها الناديتان لم تجفا عن وجهى بعد ، أخذنا نشب على أطراف أصابع أقدامنا ، لم نتمكن من الوصول إلى النافذة المطلة على الحديقة ، سمعنا نسغ الحياة يسرى فى ألياف الشجر ، وهسيس الأوراق بين الأغصان الباسقة ، كانت رغبة الانطلاق مشبوبة فى نفوسنا ، جاءنا صوتها الحانىّ ضاحكاً وهى تحل عقدة الإيشارب الأزرق الزهرى عن عنقها ، يتكشف الشعر الأبيض الحريرى :

- كل شئ كما تركتموه .

شجرتا النبق والتفاح البلدى بينهما أرجوحة صغيرة مجدولة من ليف النخيل، عند وسطها المرتخى وسادة قطنية ، لم تعد

زاهيـة اللـون كمـا كانـت ، رحنـا نتصـارع عليهـا ، نتقـاذف بكـرات الطـين ، شـكلتها أيدينـا بعفويـة ، تركـت المطبـخ وسـخافات الفلاحـين الأُجريـين ، بـادرت تفـض الشـجار ، علمتنـا أن كل شـئ بنظـام حتـى اللعـب !.

فـى يدهـا رقائـق مـن عيـش البتّـاو الصفـراء ، هرعنـا إليهـا ، ضحكـت ، اسـتقبلتنا جميعـاً فـى حضنهـا ، جلسـت علـى كرسـيها الخيزرانـى ، التففنـا مـن حولهـا ، ركنـا بأذرعنـا الدقيقة على حجرها، راحـت تقـص علينـا حكاياتهـا العجيبـة ، راعتنـى هيئـة شـمهورش الحرامـى ، وأعجبنـى منظـر عقلـة الإصبـع مع سـت الحسـن والجمال، كنـا مشـدودين إلـى أقصـى حـد ، تحملنـا أطيـاف ملائكيـة شـفافة ، رأينـا عوالـم لـم نرتدهـا مـن قبـل ، لـم يشـغلها «التريكو» عـن مداعبـة خصـلات شـعرنا بـين الفينـة والفينـة الأخـرى، والشـمس دافئـة تتسـلل مـن خـلال غصـون شـجرة البامبوزيـا العملاقـة، وعـم علـى العجـوز الطيـب يتقـدم منـا متسـللاً ، تعجبـه حكاويهـا ، نأخـذ مـن بـين يديـه السـمراوين ثمـار البامبوزيـا الحمـراء اللذيـذة التـى نعشـقها ، نـكاد نلتهمـا مـرة واحـدة ، تحـول كلماتهـا فـى آذاننـا دون سَـبَق أيادينـا ، نجـرى ، نلهـو ونحجـل علـى الأرض ، نـأكل المزيـد منهـا، طريـة منـداة مغسـولة بميـاه صافيـة مـن الطلمبـة ، نلتـف حولهـا مـن جديـد، معنـا عـم علـى وقـد أضـرب عـن عملـه ، يضحـك ونصـف أسـنانه غائصـة فـى المجهـول:

- اعتبرونى فى إجازة مثلكم .

نضحك ، وتضحك مثل النسمة الرقيقة .

لم ترتكز لقيمات الغذاء أو العشاء فى جوفى ، آخذها لكى أعيدها ، هيئتى الذابلة لم تكن لتسُرها أبداً ، كنت أتلوى كالثعبان فى داخلى ، الحزن ، الخوف لم يتركا منفذاً واحداً ليأتينا النوم من خلاله ، بدت العيون مقرحة ، حمراء ، تجمدت الكلمات على أطراف الشفاه ، وتحجرت على ندرتها ، زفرت أمى غاضبة ، راحت تنفث الدخان المعبق برائحة العنبر فى أرجاء الغرفة ، كانت على الطراز الشرقى القديم ، انقلب كل شئ فى الداخل وفى الخارج ، لمحت عم على الجناينى فى الحديقة ملتفاً ومن معه حول رفاتها الخشبية ، أخذت أبكى ، وأضرب الأرض برجلى ، ربت على ظهرى، كان وجهه المتغضن يفيض بالشفقة :

- لابد من اجتثاثها ، لقد فنت جذورها .

هوت من عل فى لحظة ، نظراتها الحزينة تغتال أوتار فؤادى، لم أغن كعادتى عندما أراها ، أتانى صوتها ضاحكاً وكأنما من عالم آخر بعيد ، يواسينى ، والجد عن كثب يرفع نظاراته الطبية عن عينيه الدامعتين ، ويقلبها لأعلى ويمط شفتيه للأمام ليبدو كهيئة القراقوز المضحك ، بكيت ، وأمى تشدنى بعيداً لئلا أذهب معهم ، صرخت :

- لست طفلاً .

أصبح الجسدان جسداً ، استوحشت عيناى ظلمة المكان ، الكلوبات فى أيدينا ترتعش وكأن وقودها من وجيب قلبى الخفقان، انصرفنا بعد أن أهالوا السواد على أجسادهم ، تفرقنا .

اهتزت بنا السيارة بشدة ، كانت يداه الصغيرتان تجذبان شاربى لأسفل ، أخذنى الألم من ألم الزمن البعيد ، نهرته ، عنفتنى كذلك فى التو واللحظة وهى تتناوله منى ضاحكة ، شق صوتها الحانى سكون الليل المختلج بصوت الموتور الدائر :

- خذ شعرى الأبيض واعبث به كما يحلو لك .

ضحكنا ، وفى عقل كل منا شجرة البامبوزيا العملاقة .

●●●

« حَفْنَة أَسيَاد »

جلس على حافة النهر الهادئ ، يتململ فوق صخرة ناتئة فى قلب الماء ، ويرشق صفحته بفتات من الحجارة ، تضطرب تحت قدميه ، وترتعش بصورته الغاضبة أمام عينيه ، وفى صمت عاجز يصرخ ساباً ولاعناً حظه ، اللحظات تتساقط من عمره كأوراق شجرة جافة ، يقتلها الخريف ، ويُحييَّها الربيع ليقتلها فى صقيع الشتاء ولهيب الصيف الكئيب ، يهز رأسه ، وهو يكاد يصرخ من شدة الغيظ :

- إلى متى أيها الحظ اللعين ستترك رأسى مداساً للآخرين، ولماذا أكون دائماً كما لاأحب أن أكون ، وأكره ؟!.

رفع ناظريه إلى السماء الملبدة بالغيوم السوداء ، ثم مد بعينيه قوس بصر حاد إلى ماوراء السياج الحديدى فوق كوبرى السادس من أكتوبر، كان عشرات المارة يطوون أنظارهم فى ثناياه الداكنة ، أفلت تنهيدة حارة من جوفه المستعر ، تخالجها آهات ، وتمتمات متسائلة حائرة :

- أَتُراهم يفكرون كما أفكر ؟.

هب واقفاً والفكرة تراوده ، تقبضه تارة فى عالم مبهم يجهل كنهه ، ثم تفلته إلى عشوائية مقيتة ، ألقى التفافة أخيرة بطرف عينيه صوب النهر ، وقد تزاحمت فى نفسه ثورة من الخواطر السود ، همس ساخراً :

- ماأكثرالذين يريدون انتشال الخلاص لأنفسهم من أعماقك .

قبل أن يتقدم خطوة واحدة للأمام ، عصبت عينيه بصوتها الرخيم ويديها الناعمتين الدافئتين :

- كنت متأكدة من أنى سوف أجدك هنا بجوار النهر .

أزاح يديها بإهمال ، غمرها بنظرة كالحة كوجهه المغسول بالكآبة والحسرة :

- احمدى ربك لأننى مازلت بجواره لافى قاعه .

طوقت بيديها السمراوين يده الخشنة الأشد سماراً ، قبضت عليها بشدة ، ضمتها إلى صدرها الكاعب ، وسألته حزينة من أجله:

- خير ، ماذا حدث ثانية ؟.

انتزع يده ، أدار وجهه نحو النهر ، وقال وغصة تكوى حلقه :

- هـه ، الباشـا إيِّـاه والـذى خدمنـاه برمـوش أعيننـا حتـى صـار كبيـراً يشـار إليـه بالبنـان ، لقـد هـدد أمـى ثانيـة هـذا الصبـاح ، هيـه، والنـاس لايتحمسـون كثيـراً مـن أجـل عربـة فـول مدمـس ، ولـو كان إنسـاناً هـو الـذى يجرهـا وليـس حمـاراً ، هـه فمـا أكثـر الفـول فـى بلادنـا .

أطرقت آسفة ، عاجزة ، لاتدرى يأية كلمات يمكنها أن تواسيه بها ، صمتها لم يدم طويلاً ، سألته باهتمام شديد :

- هل مازلت منقطعاً عن عملك ؟.
- هه عملى أسود ، هل تسمين الهوان عملاً !.
- يجـب أن تحنـى رأسـك قليـلاً حتـى تمـر عاصفـة الحيـاة الضاريـة .
- تقصدين حتى تمر النعال القذرة الملطخة بأرواث البهائم.
- آه ، يالـك مـن غبـى مكابـر يالحظـى التعس فى زوج المستقبل الكئيب .

قالتها ممزوجة بضحكة رقيقة ، ولكنه تجاهل ذلك تماماً :

- أى مسـتقبل تعنـين ، إخلعـى ملابـس المدرسـة هـذه ، دبلـوم التجـارة أو حتـى البكالوريـوس لـن يفيـدك فـى شئ،سـلينى أنـا .

تراجعت إلى الوراء مبهورة الأنفاس ، تزعجها نظراته الشيطانية ، بصوت مبحوح قالت هامسة والخجل يقتلها :

- أجننت ؟!.

- دعك من الشقاء مادامت الأشياء كلها قسمة ومكتوب كما تقول أمى ، فمن لايستحق أخذ أكثر كثيراً ممن يستحق .

- لاتكفر .

نظر بعيداً إلى لاشئ ، تطلع إلى نسور السماء :

- أمثالنا نهايتهم فى حواصل هذه الطيور ، لامقابر لدينا تواريا بعد الموت ، سوف يتركوننا هلكى فى العراء .

تقدم نحوها ، تراجعت إلى الوراء ، أطبق عليها بعينين نهمتين زائغتين ، وبصوت تخنقه عفونة الرغبة قال وهو يتلمظ :

- تعالي نفعل شيئاً مجدياً .

صارخة :

- ارفع يديك عنى .

دفعته بشدة ، وشلال من الدموع يتفجر من خبء عينيها الناعستين بالفطرة ، أردفت متحسرة ، وهى تتعثر إلى الوراء فى دهشتها :

- لقد كنت أذكر اسمك حتى الثمالة ، الآن سوف أفعل المستحيل من أجل نسيان هذا الاسم القذر .

انصرفت مهرولة ، وعلى أثرها انطلق الظل مرتعشاً ، وديس فى زحام المدينة الكبيرة تحت أرجال المارة وإطارات السيارات الفارهة ، هكذا بدت له الصورة وتجمدت .

فى حنايا الأفق الدامى كانت الشمس تسبح غارقة فى بحر الغروب العظيم ، ظلوا يلاحقونها بنظراتهم المتوجسة خيفة حتى دق ظلام الليل أوتاده فى أعينهم ، كانوا يكتمون أنفاسهم، ويتحركون بهدوء وحذر بالغين ، لقد أقسم وتوعد بأنه سوف يفرغ فيهم رصاص مسدسه ، وسوف يحيل هذا المكان الخانق إلى مقبرة دامية ، مازالت صرخات التهديد الهستيرية تتردد فى حنايا الذكرى وصداها ، صورته القبيحة ملء الأعين ، وأنشوطة تعدم نبضات قلوبهم ، يرتجفون رعباً،يسدون مسامعهم أمام طلقات لسانه القاتلة:

- سوف أدهسكم كلكم بسيارتى يابائعى الفول الأوباش ، ارحلوا عن جنتنا التى لم تخلق لأمثالكم ، انكم تلوثون أنظارنا بهيئاتكم الرثة ، وتخنقوننا برائحتكم الكريهة ، وأصواتكم اللعينة .....

تلافيف الزمان حول عقارب الساعة تتعقد بأساريرهم ، المهلة المعطاة لهم أوشكت على النفاذ من حلق الزمن ، اقتربت منه واجفة، جعلت تمرر أصابع يدها وتمسح على شعيرات رأسه الفاحمة السواد ، وتهمس إليه راجية :

- أشر علىّ يابنى ، ماذا سنفعل ، الوقت يمضى كالبرق الخاطف ، والباشا الله يسامحه لايرحم .

صمتت برهة ثم أردفت متسائلة بسذاجة بريئة :

- هل فى مقدوره حقاً أن يشردنا ، ويقتلنا ، وبين أيدينا أوراقنا الشرعية التى تحمينا ؟!.

- هه ، بل يسجننا أمواتاً أيضاً ، إنه يطبق القانون ياسيدتى.

- أى قانون هذا ، أتخرف ؟!.

أشخصه المنظر الذى تراءى له دفعة واحدة ، الحياة كلها فى صورة سوداء ، همس قائلاً :

- إنه القانون السرى للحياة ، فهل لديك أدنى اعتراض ؟.

منزعجة ، تكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة صرخت :

- ياستار يارب ، وما العمل ؟!!.

طالت لحظة الصمت وكأنها قد ألقت قنبلة وليس سؤالاً بلاجواب ، كان العجز هو لسان حالهم جميعاً ، الصغار والكبار معاً، أخيراً قطعت حبل الصمت موجهة حديثها إلى الكل بنبرة آمرة :

- سوف نلم أغراضنا ونمضى من هنا مع شعاعات شمس الصباح الأولى .

ثم أكملت حديثها بنبرة تشنجية وهى تنكس رأسها قائلة ، وتمسح دمعاتها اللؤلؤية بظهر يدها :

- وليحيا العالم كله نجاسة مأساتنا .

قال بعناد وهو يخترق بعينيه شعلة اللهب المنبعثة من المسرجة الزيتية فى الغرفة الضيقة :

- لن أرحل معكم ، اذهبوا أنتم ، وسأذهب أنا إلى ، إلى لاشئ.....

دقت على صدرها بكف يدها ، المنديل المشجر المعصوب على رأسها حتى كاد يخنق رأسها المليئة بالأفكار المزعجة ، شهقت شهقة عميقة ، لاتصدق ماسمعته للتو :

- ماذا ؟! ، هل ستتركنى وهؤلاء البنات نمضى وحدنا فى هذه الغابة الكبيرة الموحشة ؟! .

أجابها ببرود الضياع :

- لاسبيل أمامى غير ذلك .

صفعته على وجهه ، بصقت صرخاتها فى ككل مكان ، ودنت منه كالمجنونة ، هامسة ومحملقة العينين :

- أنسيت ماحدث لأختك ، لقد غرر بها الباشا بحجة أنه سوف يصنع لها تمثالاً كبيراً اسمه « بقايا عذراء» ، فقتلها منتحرة مثل خرقة بالية.

لف ودار فى المكان كحيوان حبيس ، وقال والحيرة تتماوج بأطراف لسانه الجاف :

- أنتِ تخمنين من أوهام رأسك ، ثم أنه ماباليد حيلة .

- ليكن،أَوَتريد لشقيقاتك الصغريات مثل هذاالمصيرالأسود.

- هه قسمة ومكتوب ، أليس هذا هو كلامك ؟.

- يمكننا أن نكتب بأيدينا القسمة والمكتوب .

بعينين غير مركزتين انتبهتا فجأة ، بدا كمن لُطِّمَ على خديه لطمات لاحصر لها ، راح يردد ماسمعه للتو شارداً ، متسائلاً :

- يمكننا ماذا ؟!!.

تركته زاهداً فى «ماذا» هذه ، لساعات طوال يرددها ، ويسبح فى أعماقها ، وأبعادها اللانهائية ، وقد انزوت جانباً تلملم أمتعتها القليلة فى صندوق خشبى بسيط للغاية ، والدمع يسيل دماً سخيناً على وجنتيها ، ثم استدارت إليه وهى تحذره بسبابة يدها :

- لاتتخل عن واجبك نحونا على الأقل لأننا بشر .

فرد قائلاً بذات النظرة الشاردة التى تملكته لسويعات :

- كلما رسمت طريقاً للحياة ، خلقوا لىّ ألف طريق للموت واليأس والفشل ، هه إننا ضائعون لامحالة ، بىّ أو من غيرى ، فلماذا أكون أنا الملاك المُخَلِّص فى عالم كله شياطين دنيئة .

كفكفت دموعها ، وهى تحاول أن تبدو متماسكة بوسع طاقتها :

- كان يمكننى أن أفعل مالايتصوره عقل ، المستحيل نفسه ، لولا السؤال القاتل من لهؤلاء الصغيرات غيرى بعد اللّه .

- .....

من رأى ذلك فى تلك اللحظة العصيبة ، لتصور للوهلة الأولى أن امرأة تخاطب حجراً صوان ، لاحياة فيه ولاروح ، سحبت نفساً عميقاً ، وشرعت تواصل لملمة بقية الأشياء المتناثرة هنا وهناك ، وقد أردفت قائلة وهى تؤكد على مخارج ألفاظها بالحسرة والمرار:

- حسناً ، سوف أعود بلارجعة إلى بلادنا فى الأرياف ، قريتنا التى تركتها منذ عشرات السنين مع شيخ البلد المرحوم جدك، بعد أنا باع أرضه وابتاع لنفسه ولنا الهوان على هذه الأرض الرهيبة ، المزدحمة من غير جدوى .

صمتت لحظة بدت من طولها وكأنها الدهر كله ، مسحت الدموع عن وجنتها وجانب أنفها الدقيق بظهر يدها المعروقة ، المدقوقة بوشم العزة والكبرياء ، ثم واصلت كلامها وهى تتصنع اختلاجة ثبات مفتعلة :

- كفانا مانلنا من فضائح فى هذه البلاد .

شاردة ، تتمتم هامسة للريح المتطاير فى كل الأصقاع ، يتدانى منها خلسة حتى يسمعها ، يكاد يتسلل كالأثير عبر أسلاك إهابها الشائكة ، يسمع الحوار الدائر فى أعماقها :

- سوف أجعل من اسمك وذكراك مثاراً للبطولة والفخار ، سوف أمارس أحلامى جهرة مادام الواقع قيداً ثقيلاً على أنفاسنا .

نظر إليها مندهشاً وهو يكاد يعدم أنفاسه ، وقدرته على الكلام:

- بطولة مَنْ؟! .

سرحت بعينيها ثانية فى سماء أحلامها ، تصرخ بلسان حالها فى جموع أهل قريتها بصوت أقض مضاجع النيام ، وأقلق الموتى فى قبورهم :

- ياأهل البلد ، لقد ضاع منا كل شئٍ فى البندر ، شيخ بلدكم وأولاده وأحفاده ، ابحثوا عنهم على الأرصفة ، فى الخرائب، وأمام السيدة والحسين ، شئ لله ياأسيادنا ، شرفاء الفقراء يحترقون ، لقد بنوا الأبراج العالية بأيديهم وسكنوا أرصفتها ، صنعوا حفنة من الوحوش التى تركب السيارات الفارهة ، الحقوهم قبل ثلج الشتاء ، ونار الصيف ، وتساقط أوراق الشجر فى الخريف ، وليكن الربيع .

نظرت إليه ، تجيل أحلامها فى حنايا وجهه ، تحيله إلى آدمى من غير أن تنطق بكلمة واحدة :

- هاهو ذا ابنكم البار الشجاع ، وقف كالجبل الكبير فى وجه الباشا ، بصدر عريض وعينين تقدحان شرراً ، لم يأبه لرصاصات الظلم والقهر .

علت صرخاتها ، تتردد فى أجواز الفضاء الرحب ، وتقارع نجوم السماء ، وتقرع أجراس النفوس :

- أبوزيد الهلالى لم يزل حياً ، أبوزيد زمانه لم يمت .

مـازال صـوت منشـد مقهـى القريـة يتـردد فـى حنايـا ذاكرتهـا، تصغـى إليـه نعسـانة ورأسـها مسـتوية فـى حجـر جدهـا العطـوف: «ومَنْ يجهل رجال الهلايل» ، « وماظالم إلا ويبتلى بظالم» ، «أبوزيد زمانـه مامـات».....

ظلت ترددها حتى وجه النهار ، العبرات تخنقها ، وقد توسدت ذراعها نائمة وهى تبكى ساخرة :

- سوف يقولون أن ام السعد مجنونة .

يسمعها جيداً ، بصدق ، لاينطق ببنت شفة .

أطل الفجر بعينيه الخاشعتين من وراء سجف الليل ، لحظات الترقب القاتلة ، والصبر الذى نفد صبره ، وكاد يشق الصدور عصبياً مجنوناً ، وكل شئ يهمس فى آذان القدر متى قدرى ؟!.

أفاق من شروده الطويل ، نظر فى المرآة ، رأى شبحاً قبيحاً ، قميئاً ، يشع العجز من عينيه ، اقشعر بدنه وهو يغرق ويغرق ثم يذوب كقطعة المِلح فى أعماق البحر الكبير ، كأن شيئاً لم يكن ، هباءة وتلاشت ، كلب وراح ، أفزعته خواطره :

- يالها من نهاية رخيصة !.

ثم ازداد حرصاً وهمساً حتى لايسمعه أحد :

- تُرى ماشكل النهايات العظيمة ؟!.

انتبهت على صوت عالٍ يهزها من كتفها :

- تذاكر ، تذاكر ياحضرات .

صوت العجل على القضبان يقعقع قعقعة مدوية ، القطار يرتج ارتجاجات شديدة ، تخضخضت لها الأجساد على الأثر فى التو واللحظة ، فى ذيل القطار عربة حقيرة درجة ثالثة ، مزدحمة بالعائدين ، المنهكين ، مدت يدها بالتذاكر ، شاردة فى دمائه المنثالة على وجهه الأسمر البسيم ، عيناه تسبحان فى لُجة من الدم ، دفنت رأسه بحنان فى طوايا صدرها الناشف ، أجهشت بالبكاء ، تمسح شعر رأسه الذى تغطيه عَفرة مخضبة بحمرة الدماء اللزجة ، يهمس وترصد همساته بالكاد :

- لقد آن للصفر أن يتحرك قليلاً ناحية اليمين .

يبتسم :

- جئت تصيبه أصابك ، قسمة ومكتوب ياحاجة .

يختفى شيئاً فشيئاً وراء سُتر عالمه الآخر الجديد ، تتلاشى كلماته كالدخان !.

●●●

« جُنَّت ليلى»

يزعمون كذباً أن قيساً قد مات ، بل قتل !!؟ .

نعم قتل بيديها هاتين الناعمتى الإهاب ، بجسدها النشوان، ولثماتها المسكرة ، ولكأنما هى أفعى رقطاء استدرجت فريستها البائسة إلى أخشن لحود الحب ، هيهات ثم هيهات ، فعندما بصق الشيطان كنت أنا هذه البصقة !.

لازالت صورتها الحالمة تنساب كالحرير إلى مخدع الخيال ، تراقصنى ، تشاربنى ، وتسكب من كأس اللذة فى حلقى ، تتصاعد الحمم مع أنفاسى ، أراها بعيني قتيل ولهان ، تلملم وشاحها الذهبى ، وتستعد للرحيل كأميرة أسطورية يكلل رأسها الغار فى موكب الغروب الأخير .

أشياء تعودت أن أُلقيها إلى محمل عقلى ليدفنها إلى الأبد فى سويداء قلبى المكلوم ، من هذه الأشياء قبرى الذى هو بيتى ، وطعامى الذى هو فتات السادة زوار ونزلاء القبور أحياءً وأمواتاً، وحبى.....

فعندما تشيع الظلمة ، وتستأسد الهبوب ، ويجن جنون الشجر الأجرد على الرُبَّى انزوى ، وألوذ بعيني إلى السماء ، ماذنبى ، بل

ما ذنبها أن تعلقتُ بنجمة شاردة فى السماء ، كان ذلك فى صباح أول يوم لىّ فى الجامعة ، فيما كنت أُلِّح على قدمي أن تثبتا ، وتكفا عن الارتعاش من تحتى حتى أقوى على مواجهة عمالقة المدينة ، الشداد، الطوال ، العراض، الأثرياء ، وذوى النظرات الساحقة ، أحد أصدقائى من سكان الدمن العفنة قال ساخراً :

- أنت لص حقير ضل طريقه خطأً إلى الخزنة الرئيسة فى البنك المركزى ، أنت كلب ضال ساقه القدر إلى مائدة عامرة بالأطايب واللحوم الشهية ، ومتع ولذائذ حظك منها لايتجاوز حدود النظرة المتحسرة ، حقاً يالها من حياة غريبة وأنت أغرب مافيها ، وأنت ، وأنت .....

أنت ، هو أنا بشحمى ولحمى ، الطول مائة وثمانى وخمسون سنتيمتراً ، زلق الكتفين ، الشعر أشقر محروق ، اللون أسمر محموش ، أما العينان فصفراوين مثل الكركم ، وحادتين كعيني الصقر ، وميزتى الوحيدة فتكمن فى نظرة أى أم إلى ابنها ، وأنه فى عينيها كالغزال لا كالقرد الأجرب مثلى ، عادة مايمسح طرف حذاءه البالى فى ثنية سرواله من الخلف خلسة حتى لايراه أحد، ولكنها رأتنى ، وضحكت طويلاً ، رحت أتصبب عرقاً من فرط الخجل ، كتمت أنفاسى ، وتسمرت طويلاً أمامها ، ولم أحر جواباً سريعاً لسؤالها :

- هل أنت طالب معنا هنا فى الكلية ؟!.

- أ .أ .أ .أجل .

- أمر عجيب !.

- الكلية سقطت ولمت حثالة الخلق أليس كذلك ؟.

- آسفة ، ولكننى لم أنطق بكلمة .

- بل انتظرها مثلما تنتظرين أنتِ سائق سيارتك الخصوصى مثل كل يوم .

- أنت تراقبنى إذن .

- العين تثقب الحجر لمجرد اختلاس نظرة إلى من تحب .

قلتها فى اللحظة التى كانت تفصل بين تلويحة يدها من نافذة السيارة الفارهة وبينى عشرات من الأمتار ، وعندما رحت ألوح لها بيدى أنا الآخر ضج العالم من حولى بالضحك .

شبق مجنون يسكن أعضائى ، وحلم متهاو يثقل رأسى ، زحام المدينة ، ونظرات الغرور العجلى ، وأنفاس المراهقات شادات الشعور كرهاً ورغباً من أعمق عمائق صبيان السعيدية المراهقين، وصاحبنا يهيم شارداً على غير هدى ، يبحث فى تلكم السماء المتوهجة بشمس العصارى عن تلكم النجمة اللامعة ، وأكاد أشج رأسى من كثرة الخبط بصفحة يدى على جبهتى المخددة :

- هل يكون العبد عاشقاً لسيدته ، هل يجرؤ ابن الجارية السوداء على مجرد التلصص سراً من خصاص الباب على أميرته الساحرة الجمال !.

أصرخ بصوت عالٍ :

- عفراء..راء ..اء..ء..ء..

عفراء امرأة عجوز حمقاء، من الحبش شديدى السواد ، تسكن خرابة الشيطان ، قالت لىّ أنها جلبت أبى من بطن أمه عن طريق عفراء هذى ، ضحكت طويلاً وأنا أغمغم كالمسطول بكلمات ثقال على صدرى :

- وبالسحر الأسود أيضاً يمكنها أن تجلب القمر المنير من عليائه إلى قاع المحيط فى سفوله الكئيب .

ألطم وجه الحظ السئ بقبضتى الفولاذية ، أصرخ فى الخلاء الرحب ويردد الصدى الأسير لسلطان صرخاتى المجنونة، ورغبتى الجامحة :

- عفراء..راء ..اء..ء..ء..

ويتجمد الصمت من حولى ويصبح دخاناً نز من سراب ، لم تمحه بعد من عينى إشراقة الصباح ، وصورتها الرائعة خطارة فى النهى تراودنى عن نفسى ، وقد شرعت تمد ساقاً لفاء خارج

سيارتها الخيالية اللون بعد ساق ، تستوى خارجها واقفة ، وبسرعة البرق الخاطف أطير إليها لاهثاً ، أغلق باب السيارة كخادم مطيع ثم نزق ، استوى قبالتها مبهوراً :

- آيا جينون لنتنازل لهذه الآلهة المولودة عن جائزة الجمال كلها [1].

نظرت لىّ مندهشة جداً ثم ابتسمت قائلة برقة وعذوبة متناهيتين :

- أشكرك ، أشكرك جداً .
- وهأنذا أقول لآلهة الجمال الأسطورى كلها آيا أفروديت جمالك للصخور الجُماد ، وجمال أميرتى الذهبية ليس مثله جمال .
- اللّه ، أنت شاعر ! .
- عندما أراكِ فقط .
- ومنافق أيضاً .

راحت تضحك كالنسمة الطروب ، تترقرق عليها نظراتى السكرى ، وتخلع عليها غلالة الحب اللبنية ، تنصرف قائلة بأسطورية متوهجة :

- الوداع ياعاشقى .

أنتبه أمامها ، تكاد تصدمنى نظرات الإعجاب الشاردة إليها من كل حدب وصوب ، بالقرب منى أسمعهما يتناغيان ، يتشاحنان، يقرع صوته نبضات قلبى المهيض :

- كلنا قيس ، ولكن ليس إلى الأبد مجانين ليلانا ، لن يقتلنى فراقك ، لن يدمرنى جفاؤك ، لن يسحقنى بعادك .

أضحك منه أمر الضحك :

- هات تُباد يشهد ويحكم [٢].

ساعتئذ يعز الحب ، وتشح القلوب ، واندماه ، ألملم أشلائى من الردى ، وأتوجع بآلام ليست فى جسدى ، لست أدرى علام كل هذا ، أو إلام ستحملنى قدماى ، مضى أسبوعان والحال كما هى الحال ، متغيبة عن الحضور إلى الكلية فى أهم مرحلة من مراحلها الدراسية ، أبحث عنها فى كل مكان كالمجنون الذى طار صوابه مع الريح ، أصرخ بصوت عالٍ كهزيم الرعد :

- عفراء..راء ..اء..ء..ء..

أين حبيبتى البتول؟!.

لحظتئذ قرر الصعلوك أن يقتحم قصر الأميرة الساحرة وليكن مايكون ، لايهم من الباب ، فالأبواب ليست قدرنا نحن

الصعاليك ، أتسلل خلسة إلى خدرها البللورى الشفيف على جسور من النار واللعنات :

- كيف دخلت إلى هنا ، من أنت؟!.

قالتها مرعوبة وقد هبت واقفة من فراشها الوثير كالصاعقة.

- ألاتعرفيننى ؟!.

تحدق فى طويلاً كالمخدرة ، أدنو منها هامساً :

- أنا الشاعر ، زميلك فى الكلية ، و.....

تقاطعنى مبتعدة إلى الوراء :

- آه ، وماذا تريد ؟.

- فقط كنت أريد أن أطمئن عليكِ .

- السائق الغبى دهس هرة صغيرة سوداء لاحول لها ولاقوة بسيارتى .

قلت باسماً ومندهشاً فى ذات الوقت :

- يالرقتك الشديدة ، ولكن أسبوعين مدة طويلة ، وكفيلة جداً لأن ينسى الإنسان نفسه وأمه وأبيه لامجرد هريرة شوارع متشردة !.

شـردت طويـلاً وقـد بـدا عليهـا الإعيـاء الشـديد، ثـم أردفـت قائلـة بوهـن :

- هـذه طبيعتـى ، كمـا أن قـوة مـا خفيـة تشـدنى ، وتعيـث خرابـاً فـى أعمـق أعماقـى ولا أدرى لهـا كنهـاً .
- هيه.
- خذاه إلـى السجن .

قالهـا بصـوت أجـش والشـرر يتطايـر مـن كلتـا عينيـه الداميتـين التفـت ناحيتهـا ثـم قـال بصـوت شـكاء لـم يخـل مـن نبـرة أدب مصطنعـة :

- معـذرة دخولنـا هكـذا ياآنسـتى الرقيقـة ، الصعلـوك الملعـون غافلنـا ونحـن نيـام ودخـل متسـللاً إلـى حجرتـك .

ثم نحوهما أدار وجهه الكئيب آمراً إيِّاهما بحرقة الفاشل :

- قلت خذاه إلى السجن فوراً يا غبيين .
- بل دعوه يذهب إلى حال سبيله .
- ولكن ياحبيبتى.....
- قلت دعوه .

قالتها برقة مثل إقحوانة تتأهب للقفول ، ويردد الصدى فى حناياى صوتها الرخيم :

- الوداع ياعاشقى .

وتنثر الذكرى صورة الأمس ، يوم مزقتنى أنياب كانت ثم لانت على شفتى ذات يوم فى الخيال ، أواه وتبطش بىّ أياد لاحول لها ولاقوة ، تمزقنى ، وتلقى بىّ ككلب أجرب إلى عرض الطريق ، وقيس المجنون يجرى مولولاً على جبل تُباد حتى أصبح على شفا الهاوية السحيقة ، لقد تآلف قلبه مع المستحيل عينه ، فى عالم وهمى من الأضداد ، أيفعلها ؟، قربان جد سخيف!.

وعفراء لم تزل فى مخبئها ترغى وتزبد ، تلعن وتقسم ، تتغنى بأساطيرها التى لايصدقها العقل ، وتدق الوشم على صدرى ، وسحب الدخان تغمرنا تماماً ، ألمح أمى اليائسة زاوية كالشبح ، تند عنها ارتعاشة كلما أطلقتُ آهة ألم بين يدي عفراء السوداوين، وأبى بالقرب منها يمسح ذقنه بأصابع يده ، ويفتل شاربه الكث بين الفينة والأخرى بجانب سبابته وطرف إبهامه :

- لايكن هذا على رجل إن فلحت يابن أمك .

أتقدم شارداً وثقيلاً نحو غرفة ما فى بطن الجبل ، أرفع الوشاح الحريرى عن وجهها الجميل الفتان شيئاً فشيئاً ، أطيل إليها النظر ، أتأمل ملامحها الجامدة كالحجر الصوان ، وجه

عفراء يُفجعنا ، وخطوط النار المنبعثة من المسرجة الزيتية ترتعش على قسمات وجهها الغليظة السوداء ، وخلال تفاريج أسنانها الناصعة البياض ، وضحكة خشنة لعينة ذات صدى عميق ؛ أتتبعث منها أم ممن لست أدرى ، تمد يدها بالسراج الوئيد نحوى ، يتبدى الفراش الزئبقى الوثير غائصاً وراء ستائر وردية شفافة ولكأنما هى هالات مرسلة من سقف السماء إلى الأرض الحجرية، وصوتها الشيطانى يدغدغ أوصالى ، ويكاد يُسقطنا معاً فى قراره السحيق ، حيث يمكن أن تنطفئ نيران العشق والجوى .

- كم لهاتين اليدين السمراوين اللتين بهما استدعيتها من أجلك لحماً ودماً .

نغزات شيطانية لاتقاوم : «أن هيا» ، كلاكما فى محراب الحب، هاقد حانت لحظتك الذهبية التى كنت تحلم بها دوماً أيها الفارس المقدام ، هيا اتل ترانيم العشق والغزل ، وتخل عن صمتك الغريب ، هيا !!.

تتقدم نحوها ، تجعلها جسداً عارياً من جُمان ، وقلبى يعج عجيجاً خرافياً فى سويداء نفسى الملتهبة ، ويكاد يفط من حلقى، أصرخ فيها بحدة ، أهوى جاثياً على ركبتي إلى الأرض ، أدفن وجهى بين كفي يدي متشنجاً ، مرتعداً ، تنهرنى ، لايعجبها الحال، وجهها المكظوم يزداد سواداً على سواده ، تلقى بالمسرجة الزيتية المشتعلة إلى الفراش الزئبقى ، تنصرف باصقة ساخطة :

- يالك من عاجز عنين .

العالم كله أمامى ولا أراه ، يصرخ ولا أسمعه ، اليوم خطبتها لفلان ابن علان باشا العلانى ، القصة القديمة تقول أن قيساً قد سقط صريعاً على قبر محبوبته قائلاً بخضوع المتبتلين :

- لبيكِ ليلى

بالروح والجسم

نحن فى الدنيا وإن لم ترنا ولم

تمت ليلى ولا المجنون مات [٣].

راح يلف ويدور حوالين نفسه كالمذبوح ، يصرخ بجنون ، وصوت عفراء من الخفاء يظاهره ويمنيه بالرجعى الوردية :

- اليوم ، الساعة ، اللحظة ، سوف تعلقون الزينات السوداء، وتشعلون شموع الموت الأبدى ، وتسكرون للصباح حتى الثمالة من نهر الدموع الدموى ، دمى : «حبيبتى الملائكية ذات الطلعة البهية، عندما يصلك خطابى هذا أكون قد أودعت حياتى كلها بمحض إرادتك وإرادة العالم الهمجى بين يدي عزرائيل»

البائس المسكين

« قيس عاشقك المجنون»

●●●

شبح أشقر يتراءى لها من وراء زجاج النافذة فى الهزيع الأخير من الليل ، باقات من ورود التهنئة متناثرة هنا وهناك على الأرض ، وبجوار الفراش الحريرى ، يمتد صراخها حتى الصباح ، شعرها السائب الهائش ، نهداها الضامران يكشف عنهما الفستان الأبيض المشقوق ، تغطيه بقعة من الشربات الأحمر القانى كدم الغزال ، عيناها الذابلتان ، بشرتها الشاحبة ، ودبيب الموت يسرى فى الجسد الناحل خلال العروق المزرقة النافرة ، يتراقص فوق جذع الشجرة العالية الكائنة أمام نافذتها الزجاجية ، يهوى ، دعوات الأم ، ولعنات الأب ، وحسرات الخطيب الناقم الذى كان يمنى نفسه بليلة متعة جنونية :

- أعين مشفقة وأخرى شامتة ، أَهُم كل ديدنك ياليلاى البتول ؟! ، يالسخرية القدر .

وتنادت حدآت القبور ، ونعقت البوم فى البيوت الخربة كما لم تنعق من قبل ، وارتفع الشاهد على القبر التعيس :

- أيها الشيطان الأسود ارحل عن مدينتى البيضاء .

(١) قالتها الإلهة أثينا لـ «جينون»أى هيرا عندما خرجت الإلهة أفروديت من زبد البحر كما فى الميثولوجيا الإغريقية .

(٢) جبل تُباد الشهير والذى دارت عليه أحداث أشهر قصة عشق فى التاريخ العربى «قيس وليلى».

(٣) البيتان من «مجنون ليلى» لأمير الشعراء أحمد شوقى بك .

« مأساة الويشى»

الناس فى هذه الأيام يروون عجباً ، ويسمعون ماهو أعجب من العجب ، وشيطان الليل البهيم يهجم بشراسة على «السيد عبدالفتاح الويشى» ، موظف العُهد البسيط فى إحدى المصالح الحكومية ، الناقم دائماً ، والثائر على حياته أيما ثورة ، إذا أحب يوماً فتاة قالوا مجنوناً ، وعند مواقف الشرف والأمانة يقولون منحوساً ، غبياً ، لايملك من حطام الدنيا غير البؤس وسيارة عتيقة وثلة من التعساء ، كانوا ستة هو سابعهم ، ثامنهم أم خامسهم لايدرى ، كل شئ عنده عبث ، سراب ، وساعة الزمن المقلوبة لم تزل الأيدى الخبيثة تعبث بعقاربها ، وبمقدرات وجوده، وتجعل الماضى حاضراً ، والنهار ليلاً غشوماً .

أصواتهم ملء أذنيه ، أنفاسهم ، تشنجاتهم ، وهذيان والده السكير العربيد كأنما تنبعث من صوت موتور السيارة القديمة الدائر ، وعينان هادئتان ترنوان إليه من خلال المرآة الجانبية عن يساره ، تطفئهما سحابة دكناء من عادم السيارة ذاتها ، وضوء خاطف لسيارة ما فارهة تنسرب على مهل من الخلف ، ثم تمرق كالسهم بجانبهم ، أمامهم ، تتبدد مع ضحكة رجولية خشنة تنز حسداً جاءت من المقعد الخلفى للسيارة :

- حظوظ ياعالم المحظوظين ، هيه !.

يمتعض ، يترنح بالسيارة يميناً ويساراً على جانبى الطريق الوعرة ، يلكزه فى جانبه ، يسبه كعادته بسبب وبلاسبب ، وبصوت أجش يذوب ثمالة يصرخ فيه بحدة متناهية :

- أفزعتنى يابصقة الشياطين هاهاهاها .

تنثال عليه الصور والذكريات الأليمة انثيال الغيث على قمم الجبال ، يرمقه بكراهية ، يتشنج ، عيناه المضطربتان تزوغان فى المرآة قدامه ، يلمحها نائمة من فرط التعب المكنون ، يخفق قلبه بشدة ، يحس تَلَهُّب النار فى أحشائها ، وعن يساره تبدو عينا أمه الملائكيتين تواسيانه ، تهامسانه بحنان جارف : «أن لاتشغل بالك بشئ غير الطريق ، قُد السيارة برفق ياولدى» .

يتفزع يهب مذعوراً ، يرفع رأسه عن ذراعه الملفوفة تحتها كثعبان الأناكوندا الرهيب ، يتطلع مرتعشاً إلى لاشئ ، لازال الهاتف يرن رنيناً متصلاً ، صوتها الداوى يزلزل جنبات الغرفة المظلمة من حواليه ، يطعنه فى روحه ، يواسيه فى ضحاياه ربما للمرة المئة بعد المليون ، هكذا خيل إليه هذا الرقم المستحيل ، كالمجنون راح يصرخ فيها ، لايصدق ماسمعه ، يكرر عليها الأسماء اسماً بعد اسم ، يشعر بدوار سخيف يريه الدنيا ألواناً كئيبة ، يأخذه إلى قاع سحيقة، خانقة ، يجفل من الحيرة إليها ، وبالكاد يهمس فى نفسه :

- أكلهم ذهبوا وتبددوا كالدخان ؟!!! .

كان لايدرى هل يصرخ فرقاً ، هل يرقص طرباً ، أم يتصلب كزوجة لوط عندما أصبحت عموداً من المِلح ، صوتها الهاتف به مرة أخرى يأخذه من هوجة نفسه إلى غيبوبة قاتلة ، لازالت تكرر أسفها لا فى ضحاياه الست بل الخمس فقط ؟!!.

ينتفض فى جلده كالملووث ، يسألها بلهفة عشرات المرات ، ويسبها ويلعنها كعادته مئات المرات : « أحقاً ماتقولين ياملعونة ؟!» تهز كتفيها دهشة :

- تصورت أن هذا الخبر سوف يسعدك !!.

كالسهم ينطلق فى أثر نفسه ، لم يكن يدرى شيئاً عن وجهته فى هذه الليلة الحالكة السواد ، ولاشئ يدور فى خياله غير هواجسه الهائجة ، وسؤال سخيف أيقظ اليأس والأمل معاً فى أعماقه يتصارعان فى داخله عليه ، يمزقانه ، العالم كله يصبح فى عينيه الكليلتين وحشاً رهيباً جاء كى ينتقم منه ، كان عليه أن يعيش فى بحر يمور بالمتناقضات ، الحب والأمل ، الرهبة، الخوف والكراهية فى لحظة واحدة ، لحظة كانت حُبلى بقرار عظيم !.

سيارته المحطمة تماماً تنهب الأرض ورأسه نهباً رهيباً ، يكاد يخرج بها متمرداً على الزمان والمكان معاً ، ينتبهون ، لايصدقون أنفسهم ، تجفل أفكارهم إلى عقله، وأسفل عجلات السيارة الأربع، يتملكهم الذعر الشديد ، إلاها ، كانت ساجية كطوف هادئ على صفحة بحر مضطرب ، وقد هفهفت خصلات شعر رأسها البيض

على ستارة الظلام القاتمة ، يختنق ، يلقمه فم الشيطان اللعين ، ينزلق إلى أمعاء موحشة هلامية الشكل ، نتنة الرائحة ، يلفظهم إلى الجحيم ، يصرخ بشنآن فى أعمق عمائقه :

- سوف أقتله ان كان هو ، صديقى اللدود ، المتزمت ، خرب الذمة ، ساعدته وخذلنى ، تزوجها ومنعنى ، المجرم فتق عرش القدسية ، أودع بصمة الجانى فى حشاياها ، وهى كما هى حجر صوان ، صلد ، لم تَثُر مرة واحدة من أجلى ، أو من أجل أى شئ، هه يقولون أن المرة الوحيدة التى صرخت فيها وضعت طفلاً كئيباً مثلها ومثل أبيه !.

يصرخ فيها بحدة وقد احتدم الموقف بين الجميع بشدة ، ووالدهما فى الركن القصى شبه المعتم يجرع من الكأس المترعة بشراهة منقطعة النظير ، يراقص نفسه ، ويدندن مغنياً بصوت تائه عن الواقع ، ويضحك على كل شئ من أجل لاشئ .

- خذى موقفاً جدياً من أجل أخيكِ ، افعلى شيئاً ذا قيمة فى حياتك ياعديمة القيمة .....

بضحكة ماجنة يقاطعهما ، ثم كسلطان طاغية يكشر عن أنيابه المتفحمة من شدة إفراطه فى التدخين وتناول المكيفات ، يصرخ فيه قائلاً ببرود :

- قلت لا وألف لا ، لن يدنسها حشرة فقير حقير عديم الرجولة مثلك ، ياأبله يا ، يا ، هاهاها .

ويغيب عن وعيه فى بحر هادر من الشتائم واللعنات وكم من مرة حالت بجسدها الهزيل بين الديكين المتوحشين ، كاد نصل السكين الحام يومها يبقر أحشاءها ، يتنهد غيظاً ، يأخذ نفساً نارياً بصعوبة بالغة ، يركن ابتسامة خبيثة على جانب شفتيه: «نعم الحمى أنتِ ياملاكى».

يتقدم نحوها يضمها بنشوة تحت إبطه ، يطوقها بذراعه السمين المترهل ، يمسح وجنتها ككلب أجرب بقبلة مقززة ، وطفلهما فى المهد قريب ، يهدهدانه ، وعينا أمه العاجزتين تشتمان ثم تتحولان إليهما ، وقد وقفا بعيدين عن بعضهما البعض عاجزين مشتاقين يتعانقان ، برفق تضمهما إلى قلبها الحنون .

يزداد انفعالاً ، الحيوانة تستحق الموت كزوجها ، مايزال يردد القسم المجنون ، سوف أقتلهم وأمزقهم إرباً إرباً ولوكانوا فى بطن الحوت ، يفزعه ذلك الخاطر الرهيب المتجدد ، والصاحى لتوه من خدر الموت ، يهبون ، ينفضون غبار القبور فى وجهه الملتاع ، كالأشباح المرعبة يتقدمون صوبه ، يتراجع القهقرى ، يسقط فى هوة لاقرار لها ، ينتفض ، يمسح غبشة الليل البهيم بصورتها الحالمة ، الملاك الطاهر ، ذات الشفتين القرمزيتين ، الخصر الضامر كغصن بان رهيف ، والنهدين الكاعبين ، كثيراً ماتوسل إلى العتل أخيها كى يزوجه السماء والأرض ، البحر والهواء ، لقد كانت كل حياته .

يصرخ كالمصروع ، يخبط بصفحة يده على مقود السيارة ، الملعون المال عنده كل شئ ، هه إنهم يبيعون ملائكة هذا الزمان بثمن بخس ، حفنة من الذهب الصدئ ، قلائد الصخور !.

يتنهد بشجن شديد وقد ترقرقت صورتها أمامه على صفحة الأفق الدامى :

- ليتها هى ، ليتنا معاً بدون هذين الملعونين ، شقيقها وشيطان الفضيحة الذى لم ير نور الحياة بعد الكامن فى أحشائها .

هيه العند جنون ، والحب يصبح شيطاناً كتوماً لحوحاً ، لايلبث أن يفضح نفسه بنفسه ، حين يضحى عرياناً مجرداً من كل شئ فى لحظة ما والظلام شارع جناحية للأفق ، يتمردان، يلوذان إلى عالم الشبق المجنون ، يلتحمان وكأنهما من فرط الحب يتقاتلان ، يصبحان واحداً فى مجمرة ، يتلاشيان وراء غلالة من أدخنة الأنفاس الساخنة ، يصدمهما وجودها الفجائى، تعنفهما بجنون ، تنشب أظافرها حسرة فى جسديهما العريانين الملتصقين، والدموع شلالاً يتفجر من عينيها على صفحة وجهها الطيب المتغضن ، يتنهد بحسرة دامعاً : «هيه ياللفضيحة والندم القاتل ، ليتنى ألقاها الآن».

يصرخ فى نفسه بصوت عالٍ ديماجوجى :

- أيها الخاطى الشرير، ارتم فى أحضانها ، عفر وجهك الدميم بثرى قدميها الطاهرتين .

كانت قبره فيه سره ومثواه ومرساه ، والنسمة المنعشة حين تكون الأجواء قائظة لاتحتمل ، والدفء والأمان حين تتجمد سبل الحياة فى وجهه ، تؤنبه نظراتها الحانية تجعله عرياناً كتلك الليلة الشاتية أمس غير البعيد ، الحياة اختلت موازينها، يتصبب عرقاً ، ينفعل عليها كعادته عندما يفلت منه الزمام : «.....أنتِ ودائماً أنتِ ، فى كل مكان وفى صحوى وفى منامى ، وبين العينين والجفنين ، وبين أنفاسى ، دعينى وشأنى ياشيخة .....»

تضربه وتنهره بحب : «إيَّاك ثم إيَّاك أن تفعل ، لاتَخُن الأمانة، الإجرام ليس له حدود ، وعليك أن تصلح ماأفسدت يداك .....»

كلماتها الطاعنة فى جسده كسن السكين تشل كلتا يديه عن جسدها المعدنى الموشى بشذرات من الذهب البارق لبرهة ، ينثر الأوراق الملونة تحت قدميها ، وفوق هامتها ، ويدسها فى قبضة يدها ، تجففها بدموعها ، تواريه جسدها الضعيف ، تود أن تخفيه عن العالم كله حتى أم رأسه فى حشاياها كما كان طفلاً جهولاً، لايعرف نفسه ، ولم يزل ، ينظر ناحيته بجانب عينيه متنهداً تنهيدة غضب حارقة : «آه ياعلة وجودى ، إن مجرد ذكر اسمك يكئبنى أيها المبصر الأعمى».

صورته الشيطانية تطغى على قسمات وجهه شيئاً فشيئاً ، وسكره البين لازال يترنح بهم ذات اليمين وذات الشمال كسيارة انطلقت فى مهب الريح توشك أن تهوى من فوق جرف هار ، انفجار رهيب ، وسحابة سوداء حجبت عن الأعين ضوء القمر الوليد ، صرخات رهيبة مدمدمة ، ولعنات تدوى فى كل مكان .

راح يختنق عندما تنفس الصعداء ، كالمجنون يفتش فى كل مكان ، وتحت الأسرة وفى كل حجرات المكان الغامض المجهول ، وأسفل شجرة السنط الجاثمة كالشبح على رابية البصر ، صوتها الحانى يدفعه إلى غرفة ما موصدة الباب ، يهمس إليها بتركيز عال وقد احتبست أنفاسه فى صدره ، واحتوشت الدموع فى كلتا عينيه المتصلبتين المثبتتين على الباب المغلق :

- أمتأكدة أنتِ أن وراء هذا الباب الموصد شخص ما يخصنى، لم يمت بعد ؟!!.

تضحك بود مصطنع من نظرة جفاء حارقة ، تفتح الباب شيئاً فشيئاً ، يتقدم متردداً للغاية ، يتراجع إلى الوراء ، لازالت دفعة أصابع يدها تنغرز فى فقرات ظهره النافرة ، تؤلمه كطعنة سكين حادة ، يتلفت حواليه كالمجنون ليرى من ذهب بلارجعة ومن عاد ، يصرخ من هول المفاجأة الرهيبة !!؟.

أمام الرجل ذى الزى الأحمر القان توقف متصلباً ، قاض المحكمة راح ينطق بالحكم بصوت جهورى ، ويحيل الأوراق إلى فضيلة المفتى ، وهيهات أن تقطف المشنقة رأس مجنون !! .

« الموت ولاهذه الابتسامة»

البنات الخمس ومصيرهن ..

الولدان ..

العيد ، الدراسة ، حفلة الخطوبة ومصاريف العلاج ، وأشياء أخرى راحت تتقاتل بالسناكى فى مخيلته ، وتحاصره كأسوار الباستيل العالية ، يده تقبض فى قاع جيب سرواله عدماً سحيقاً، يذفر فى ضيق يكاد يشعل فى العالم الأصم الأبكم الأعمى من حواليه ثورة نفسه ، وغضبتها الرهيبة :

- ألا من نهاية لهذا الشقاء ، مالعمل عليكم اللعنة جميعاً .

قبل أن تهتك غضبته جُدُر قصر الوقار والذى عاش فى كنفه لسنوات طوال ، تساءل إلى نفسه بانزعاج شديد وقد لاح له وجهه المتغضن فى زجاج النافذة أمامه :

- هل بدأ ذوبان كتل الجليد فى القطب الشمالى ؟ ، أبدأت أتساقط كأوراق الشجر فى زمن الخريف الجاف .

نظر من النافذة المطلة على قلب القاهرة الساخن ، أخذ يحل ربطة عنقه ، ويطلق آهة طويلة معاندة ، تكاد لاتخرج ، تخنقه ،

تفزعه خواطره ، وتطارده كصوت وصورة زوجته اللتين تلازمانه دوماً كظله .

طال شجارهما فى المرة الأخيرة حتى ساعة متأخرة من الليل نهرته محذرة بصوت عال جداً أقض سكون السحر فى مضجعه البهيم ، سبابتها كادت تفقأ له عيناً من عينيه المستلقيتين فى فراش اليأس والعجز المقيت :

- أولادك يقولون اليتيم هو من فقد الحظ والجاه والمال فى هذه الحياة الكئيبة .

- إنهم يهذون نفس هذيانك السخيف .

كالشيطانة راحت تصوب إلى قلبه نصل لسانها الحاد :

- كم أنت صغير كالصفر رغم شيبتك ، وقمئ لاتعرف مامعنى أن يبدو الرجل صغيراً أمام امرأة ، وأمام أبنائه .....

هب غاضباً كالعاصفة فى وجهها :

- اخرسى ، يالها من كفن شؤم كلماتك ، ماذا أفعل ، إننى أموت فى اللحظة ألف مرة من أجلكم !.

- زوج أبله زوزو لايموت موتك هذا ، وأولاده يُمَضُّون الصيف فى أجمل منتجعات الغرب الحالمة ،والشتاء فى أحضان ليالى الشرق الدافئة .

جعلت تدنو منه وقد انشق ثوب نومها الأسود عن خريف جامح ونهدين ضامرين ، هامسة تلفه بشفتيها الحمراوين كالنبيذ المعتق ، تحاول أن تكون ساحرة ملساء :

- أنت الآن تجلس على ذات مقعده ، وكل مافى الأمر ابتسامة وكلمة طيبة ، أو اصمت تماماً إن شئت ، بعدها سوف نرى الحياة على وجهها الآخر الجميل .

أفاق على يد اتخذت من عارضة منكبه مسنداً ، نظر نحو صاحبها هلعاً وفى عينيه أطلال نظرة شاردة :

- أنتَ ؟!.

ابتسم له الرجل ابتسامة عريضة وهو يقول بعينين مفتوحتين عن آخرهما :

- صباح الخير ، أخبار مزاج السيادة عال ؟.

اغتصبته الدهشة ، نظر نحو المقعد ، ثم نحو زوجته والأبناء والدنيا بأسرها ، على وجهه تراقص الغضب والابتسام معاً ،

بـدا كالمخنـوق ، الشـيطان يفعـل أشـياء مجنونـة برءوسـنا عندمـا نسـلمه مفتـاح الحكمـة فـى الأوقـات العصيبـة ، سـار بخطـوات بطيئـة نحـو مقعـده الوثيـر وراء المكتـب اليوتيـب الخشـبى الفخيـم ، جلـس شـارداً ومتجهمـاً كوجـه الدبابـة للحظـات ، أخـرج القداحـة الذهبيـة الرخيصـة المتآكلـة الأطـراف مـن وفـاض جاكتتـه الصيفيـة القديمـة ، أمسـك بالورقـة تلـو الورقـة فـى الملـف الأسـود الكبيـر ، وهـو يغمغـم قائـلاً فـى عبـوس :

- النيران لاتشبع من أمثالكم .

صرخ الرجل ، كالمجنون راح يقفز ويثب كقرد إفريقى متوحش:

- ماذا تفعل أيها الأحمق .

غمره بنظرة ساخرة هازئة ، ثم قال بذات العبوس :

- منظـرك يسـتفزنى لكـى أضحـك وأضحـك ، ولكنـى لـن ابتسـم أبـداً حتـى المـوت .

الدخـان المتصاعـد مـن احتـراق الملـف الأسـود الكبيـر ، خيـم علـى المدينـة التـى كانـت تتـوق لنومـة هادئـة منـذ زمـن بعيـد .

●●●

« وقالت لا»

تحلقت الأعين السهرانة حول مائدة الروليت الخضراء ، الكل ألقى برهانه وبقيت الساحة خالية للكرة الصغيرة الحمراء ومشيئة القدر ، احتدم الصراع بينهما إلى أقصى حد ، كانت واقفة بينهما عند رأس المائدة ، تند عن شفتيها الورديتين ابتسامة قانطة ، وارتعاشة خوف من المجهول بين لحظة وأخرى .

راح يقبض على يد زوجته الحسناء ، ويقسم فى نفسه أنه سوف يسترد كل ماله الذى خسره مهما كان الثمن غالياً ، سدد نظرة نارية إلى غريمه الجالس قبالته على الطرف الآخر من المائدة، هز رأسه كمداً وهو يراه يدفن يده فى يد معشوقته القديمة، ويدسها بإصرار فى خبايا صدره ليغيظه ، فى عينيه لاحت ومضة أمل حيرى تبرق ، ثم تخفت مرات متكررة بفعل صوت دحرجة الكرة وهى تنزلق من فوق القبة المستديرة نحو الرقم .....؟ .

الرقم الذى كان يخشاه!! .

ينقبض صدره ، يصر على أسنانه ، كان الآخر منفرج الأسارير، أطياف الماضى تلوح له فى مخيلته ، يستنشق رائحة

الحب القديم وأيامه التى خلت ، يضغط مؤخرة غليونه بإصبعيه السبابة والوسيط تحتهما الخنصر والبنصر يحملان الكأس من قاعدتها ، يساندهما الإبهام من فوق ، يدق بحافة فوهتها على أسفل ذقنه ، يأخذ نفساً عميقاً ، ينفث سحابة من الدخان ، تلف ضوء المصباح الساقط هرمياً على المائدة بسحابة قاتمة وشاحبة مثل وجهه ، يخيم الهدوء التام على المكان ، وعلى وجهها ، كانت مصدومة ، فلقد حدث آخر مايمكن أن تتصوره امرأة أن يصدر من زوج فى العالم ، ففجأة ألقى برهانه الجنونى ، المستحيل ، يزداد اضطرابه ، وقبالته الآخر يتطلع نحوها حالماً ، آملاً فى الفوز بها، دقات القلوب تخنق مسمعيه وتركيزه ، يرد نظرة غريمه الملتهبة بأخرى مليئة بالتحدى .

لمعة الأعين المتلهفة تدور مع الكرة حول نفسها مرة ومرات عديدة ، ثم وهى تنزلق ، يسبقونها وهى تتباطأ رجماً بالغيب إلى مختلف الأرقام ٦-٧-٨-٩-١٠ .....

لحظة ويتقرر مصيرها إلى الأبد ، انسحبت من بينهما بعيداً عن حلقة الضوء ، وثرثرة صرخاتهم الثملة ، على لوحة الأرقام المستديرة يختفى الرقم « ٧»، فوقه تستقر الكرة أخيراً ، يصرخ ، يلتهم الجنون عقله ، تضج القاعة بالتصفيق الحاد ، يقفز الآخر فى ذات اللحظة صارخاً وهو لايصدق نفسه :

- هيه أيها الحب .

كانت لاتدرى من كسبها ومن خسرها ، صوت الصرخة انطلق هذه المرة من فوهة المسدس ، الجمع الحاشد من السكارى تسمر فى مكانه ، يضربون أكفهم ببعضها البعض : « كل شئ جد عجيب فى هذه الليلة» .

إلاهما ، راحا يهرولان إليها ، ينطرحان أرضاً فى الركن المظلم من القاعة الفسيحة ، يحملان رأسها معاً ، يستمعان إلى كلمات تموت شيئاً فشيئاً على شفتين داميتين ، مرتعشتين :

- ولتبقى لىّ.....؟!!! .

●●●

« أحلام المدينة»

لـم أسـتيقظ كعادتـى علـى صـوت الشـيخ حَمديـن وهـو يـؤذن لصـلاة الفجـر مـن فـوق مئذنـة المسـجد الصغيـر الرابـض علـى مشـارف بلدتنـا أرمنـت الحيـط ، لـم أكـن أدرى أن كابوسـاً رهيبـاً كان فـى انتظـارى ، أفقـت هلعـاً علـى أصابـع يدهـا وهـى تتغـرز فـى أحشـائى ، وتشـدنى بحـدة مـن جلبابـى ، رحـت أفـرك منزعجـاً بظهـر يـدى الغشـاوة التـى كانـت ترين علـى عينـي ، خيـط الشـعلة الرفيـع المنبعـث مـن المسـرجة الزيتيـة فـى يدهـا الأخـرى كان يخفـت ويتوهـج متراقصـاً بارتعاشـات عشـوائية علـى قسـمات محياهـا الأسـمر الجـاف ، بـدت صورتهـا لـىّ لأول وهلـة مرعبـة وهـى تصـرخ فـى وجهـى آمـرة بصـوت أجـش مرعـب :

- كيف يأتيك النوم وسيد عبدالرحمن فى البلد ؟! .

رنـوت إليهـا رنـوة المندهـش ، أخـذت أردد الاسـم بصـوت فاقـد الذاكـرة ، ولايخلـو أيضـاً مـن حشـرجة ربكـة المفجـوء :

- سيد ، سيد عبدالرحمن !!؟.

لـم تطـق معـى صبـراً ، سـحبتنى بعصبيـة بالغـة مـن تحـت الغطـاء وهـى تصـرخ فـىّ بنبـرة مؤنبـة :

– أنسيت بهذه السهولة مَنْ نهش كبدى بأسنانه القذرة ، هيا، لقد وقع الفأر أخيراً فى المصيدة بعد سنوات طوال لم أذق فيها طعماً للنوم .

– لا ، لم أنس شيئاً .

كنا نتراسل بالنظرات الملتهبة ، يشق أسماعنا من الخارج صوت الريح وهى تصفر ، وتعبث بأوراق اللبلابة المتسلقة دوران بيتنا الطينى من الخارج ، ألمح ظلالها المترامية على أطراف نافذة الغرفة الخشبية المتهالكة ، أمامها وقفتُ متخشباً ، كانت تهزها بين يديها ، وتدفع فوهتها فى صدرى بعنف آلمنى ، قلت متنهداً وأنا أزيح بأطراف أناملى ماسورة البندقية العتيقة بعيداً عنى وقد عيل صبرى تماماً :

- ماهذه !!؟ .

- إذهب أو أذهب أنا .

عيناى كانتا تحدقان فى تينك العينين المكحولتين بسواد الغضب الدفين ، استدرت على كعب قدمى دورة كاملة وأنا فى غاية الغيظ ، رحت أنثر الأشياء يميناً ويساراً من تحت فراشى فى أنحاء الغرفة الواسعة ، ثم جعلت أسحب بحذر واضطراب شديدين الجريدة الصفراء من طرفها ، التفت نحوها وقد

استرسلت بلادعوة فى القراءة بذات العصبية ، بعدها سددت الجريدة قريباً من وجهها الواجم الشديد الشحوب :

- ألا تصدقين بيان وزارة الدفاع ، لقد مات بطلاً شهيداً على أسوار السويس الباسلة .

أشاحت بوجهها عنى ، سبقتها بسرعة إلى الأمام ناحية الباب كى أمنعها من الخروج ، بجسدى وذراعى ظللت واقفاً أمامها كالمصلوب وأنا أصرخ محتجاً :

- أنتِ عنيدة ، تركبين رأسك بلامبرر .

دفعتنى بقسوة من سبيلها ، وهى تحرقنى بنظرة ملتهبة وبضع كلمات قاتلة :

- تكون مارقاً مهدور الدم لو لم تثأر لأبيك كالرجال .

ترقرقت الدموع فى عينيها وهى تبكى بحرقة ولوعة شديدة، تنهدت يائساً ، دنوت منها لأقبل يديها ورأسها وبين عينيها الغائرتين ، ثم حملت همى الثقيل على كتفي ، مضيت وحيداً بين الحقول تحت جنح الظلام أهذى كالمجنون ، كانت الصور والذكريات تشتعل فى مخيلتى كاشتعال السماء فوق قرية أكياد البحرية ، جثث عشرات من الأطفال الأبرياء تتناثر بالدماء فى كل مكان على أطلال مدرسة بحر البقر الإبتدائية ، ليلتها لم تنم

المدينة التى اتشحها السواد من البحرين للنهر حتى رمال الصحراء المترامية الأطراف ، الأعين الدامعة باتت كلها مسهدة ترى حلماً واحداً لاترى غيره ، يقولون أن الخيال عندما يسيل على العيون تصبح الحياة جحيماً لايطاق ، كذلك أبى أصبح شبحاً لايطاق ، بدا مشمئزاً من نفسه وهو يرى الدمامة التى علت وجهه وتحت عينيه ، وحجمه الكبير الذى صار صغيراً كالصفر ، ذات الحلم كان يتراقص فى عينيه ، لم يبال وهو يرى نظراتها تطبق عليه من كل جانب ، راحت أمه تزجره صارخة وهو يلملم أشياءه متأهباً للرحيل ، تتبعه لاهثة كظله المضطرب :

- انتظر يامجنون لقد أديت الجهادية أتريد العودة إليها ثانية، عش لثأرك وأرضك ، لىّ ولزوجتك التى كافحت طويلاً من أجلها ، أتريد اليُتم لبذرتك التى لم تر نور الحياة بعد! .

دفعها عن ذروة الرغبة المتأججة فى صدره بصوت حانٍ وعينين شاردتين :

- ليتكِ الخنساء .

راح يلثم بطن أمى وهو يقسم قائلاً :

- والله لوكان بيننا الآن لما ترددت فى أخذه معى وليكن مايكون .

مازالت رغوة قبلته تبلل جبينى تحت أصابع يدى السمراء .

مـن بعيـد لاحـت لـىّ سـاقية أرضنـا كانـت سـاكنة بلاحـراك ، تميـل عليهـا وتتخلـل فرجاتهـا الأغصـان الجافـة ، وقـد ترامـت علـى أطـراف الصـورة الشـبحية المقبضـة أشـعة القمـر الفضيـة ، بعـد لأى ومعانـاة سـقط بصـرى فجـأة علـى شـئ مـا كان سـاجياً علـى الأرض كصخـرة سـوداء ، تقدمـت نحـو هـذا الشـئ متوخيـاً الحـذر ومشـهراً بندقيتـى العثمانلـى القديمـة :

- مَنْ أنتَ ؟ .

أسمع صوته يهتف بىّ فى أعماقى :

- أنا هو من خرجت فى الظلام من أجله .

جحظت عيناي ، قلت مندهشاً :

- فى أرضنا ، وبهذه السهولة ، يالجرأتك !! .

- أجل هأنذا بشحمى ولحمى ، هذا صدرى مفتوحاً أمامك ماذا تنتظر ، لقد سئمت الانتظار ، أريد أن أحيا بحق وحقيق .

فـى البدايـة ارتج علـىَّ الأمـر ، خرجـت كلماتـى مـن حلقـى طائشـة مثـل رصاصاتـى المكتومـة ، لامعنـى لهـا ، كلمـة مـا جعلتنـى أنتبـه إليـه بـكل جارحـة مـن جوارحـى ، كلمـة قيـدت لهـا سـمعى ، وأسـرت عينـي إلـى حيـث كان مكومـاً علـى نفسـه يغمغـم بشـفتيه :

- إيِّاك أن تظهر ضعيفاً أمام نفسك ، إرادتنا هي الشئ الوحيد الذى نملكه فى حياتنا ، حتى جسدك يمكنك أن تفك أزراره وتمضى ! .

فتشت فى نفسى طويلاً عن كلمة واحدة أحطم بها جدار الصمت الرهيب بين كلينا ، قلت للمرة العاشرة بعد المليون ، وعيناي تزيغان فى وجهه الأسطورى ، وترجوانه أن يتكلم :

- ألا تنطق أبداً ، هل فقدت فى الحرب لسانك أيها العجوز، يقولون أنك كنت بطلاً من أبطال العبور ؟! .

طالت إطراقة رأسه إلى الأرض ، رجلاه كانتا تدفنان ظله الشبحى فى الثرى بلا فائدة ، أكاد أسمع الكلمات التى تدور فى أعماقه :

- هه ويقولون أيضاً أننى قاتل لئيم .

لحقت به وهو يتوارى مختفياً بين أجمة من الأشجار الكثيفة، رحت أهزه من كتفه المهزول بيدى المرتعشة وقد ابتدرته متسائلاً فى حدة بالغة :

- وأنتَ ماذا تقول عن فعلتك الشنعاء ؟.

إرتعبت نظراته المنطفأة ، مضى وكأنه يحمل جبلاً ثقيلاً على أنفاسه المتلاشية ، عيناي تمسكان به على حافة المدى البعيد شبه المظلم ، ألاحقه بصوتى الصارخ فى غضب جم :

- أنت تولينى ظهرك لأنك تعودت أن تأتى الأبرياء من ظهورهم ، تعلم أن الرجال بحق لايقتلون الناس من أظهرهم ، وأنت لم تكن رجلاً أبداً .

أصرخ فى نفسى مستعجباً لحالى :

- ياإلهى ، ماذا يمنعنى عن ضغط الزناد ، يالحظك التعس ياأبتِ، هأنتذا مكشوف الظهر فى خندق واحد مع الشيطان الرجيم.

فى ليلة من تلك الليالى الممطرة ، التى يبيت فيها القمر مختبئاً فى ثنايا الأعين السهرانة ، كان صوت مذياع مقهى بلدتنا المنطلق من القاهرة الكبرى يردد اسمه المشئوم ، وينادى عليه ، وجمع من المصفقين لرجل لم يحضر الحفل العظيم ، وجدتى تصم أذنيها ، تغلق كل النوافذ ، تندفع إلى المقهى تحطم لعليش الكلاف مذياعه المزعج ، لمحته فى خبء من الأعين المسهدة ، كان متكئاً بذراعيه على ركبتيه الناحلتين ، أحس بىّ مع أننى كنت أتقدم منه متسللاً كالقط السّرَّاق ، قلت ساخراً بلا مقدمات ، والفوهة الحديدية مسددة بين عينيه تقريباً :

- أسمعت ماسمعنا يابطل ؟! .

نظر إلىّ ثم قال فى نفسى وهو يهز رأسه باستخفاف :

- هه إنهم يمنحون الموتى أوسمة البسالة هذه الأيام ! .

- ولماذا لم تذهب ؟! .

- أنتظر حتى تدب الشجاعة فى أوصالك .

قلت هازاً رأسى باستغراب :

- شئ ما أجهله يلجم قوة سبابتى ، يمنعنى عن الضغط على طرف الزناد كلما رأيتك .

- الحق قوة ، الحلم قوة .

راحت الدموع تنحدر من عينيه فى أعماقى ، كنت على يقين من أن حديثاً ما كان يدور فى نفسينا معاً وفى آن واحد ، ذات الصور التى فى عينيه تتابع ؛ أراها مندهشاً ، راح يزرع الطريق بالألغام أمام الدبابات اللعينة التى كانت تزأر بوحشية مرعبة، فوقه السماء كجمرة من اللهب تتصدع ، كانت جرأته مثاراً للدهشة والعجب معاً دنا منه بحذر شديد وهو يزحف على بطنه مخاطراً بحياته تحت وطأة النيران وصوت المدفعية الهادرة :

- يجب أن تعود إلى الخندق فوراً .

- لا ، لن أدعهم يمرون فوق حلمنا الذى تحقق ، ارجع أنت ولتحمنى من الخلف .

لم تجد معه المحاولة فلاوقت للإلحاح والإيثار ، الأثرة هاهنا تكون أجدى وأنفع ، استدار عائداً على مضض ، ذفر قائلاً فى نفسه وأكاد أسمع شفتا قلبه ترتعشان :

- هيه ، إن الإنسان ينسى نفسه وكل شئ حين يرى حلمه الكبير يتحقق ، أمام عينيه ، على أرض الواقع اللاهبة .

أتمتم بصوته :

- الفدادين العشر ، الزوجة المليحة ، الطفل الغرير صاروا أشيائى التى لاأملك لها حيلة ، ننام معاً ظهراً لظهر ، مَنْ يصدق!؟، نستلقى برأسينا كل على ذراعه نرى نفس الحلم ، المدينة كلها ترفل فى أعيننا بثوب عُرسها الأبيض ، تطبع قبلة رقيقة على خدينا .....

قلت أقاطعه فى نفسى وقد عرانى الاندهاش ، فيما كانت عيناي ترصدان إنحناءة رأسه على صدره المتخشب :

- والسنوات الطويلة المُرة التى خلت ؟ .

- مابين أهلينا كان شيئاً لعيناً ومابيننا صار شيئاً آخر .

قلت فى نفسى :

- كذبتِ .

نفضت عن نفسى الأوحال ، تحاملت على ساقي ، لملمت شتات نفسى المتصارعة ومضيت عائداً أدراجى ، كان البيت مسرحاً للصمت الدامى ، الكل بدا غارقاً فى ملابس سود تقطر خليطاً من الدم والدموع ، كانوا ينتظرون الخبر السعيد ، يتأهبون لإطلاق الزغاريد ، وتفريق الشربات على بلدتنا والنجوع والكفور المجاورة ، وحين دقت ساعة عودتى بدوت أمامهم كعقرب ساعة يدور خارج إطار الزمن ، سحبتنى فى التو من مرفقى بسرعة متناهية وراء جدار ما فى البيت القديم ، راحت تلومنى وتقرصنى من لحم ذراعى بقسوة بالغة :

- يالقلبك الهين الليِّن ، سوف أبرقعك كالحريم .

عرفتها جادة دوماً لاتهزل ، قلت متأوهاً ومتلعثماً فى حديثى:

- لقد انتظرت حتى تمر ذكراه .

قالت محتدة :

- ليس قبل أن تثأر له أية ذكرى .

- لقد مات شهيداً .

- بل مقتولاً فى ظهره .

- لنطلب التحقيق فى الأمر إذن .

لطمتنى على خدى ، بدت أمارات الصدمة تسود على تقاطيب وجهى ، قلت بحزن شديد :

- إذن فهو ليس بطلاً ؟!! .

صفعتنى مرة أخرى على وجهى بيديها وعينيها معاً :

- اخرس أيها الجبان ليس لأحد فى الكون كله بطولته وشجاعته .

صمتت برهة ، ثم أردفت قائلة وهى تجتر من مقبرة النسيان قتلاها قتيلاً بعد قتيل ، وكانت مفاجأة مدوية لىّ :

- لقد رفضته لأن والدك كان لىّ كل شئ ، لم يكن بين هذا العاشق المتيم وبينا غير الدم .

همست فى نفسى :

- عشق وثأر !! .

انفجرت باكية ، احتبست الكلمات فى حلقها ، راحت تلفظها بصعوبة وكأنما تستنطق روحها الميتة :

- هـه وهاهـوذا قـد ظفـر بمـراده دونـى ، هيـه هـل صدقـت المذيـاع ، وأمازلـت مصـراً فـى قـرارة نفسـك علـى أنـه كان بطـلاً أريبـاً مـن أبطالنـا ؟ .

انتصـف الليـل علـى سـؤالها الـذى لـم أجـب عليـه بعـد ، رُفعـت المقاعـد مـن باحـة المنـزل الفسـيحة ، انصـرف المقـرئ وهـو يـكاد يتعثـر فـى ظـلام عينيـه ، كان شـخصاً مـا قصيـراً وافـر الهامـة يسـحبه مـن كـم جلبابـه إلـى الخـارج ، اتـكأت بذراعـى شـارداً علـى وسـادة اسـطوانية الشـكل فاقعـة اللـون كانـت مندسـة فـى حجـرى ، عينـاي تبرقـان مثـل نجمتـين لامعتـين فـى سـماء ليـل بهيـم ، وأفـكارى ثـورة لاتنـى عـن التوقـف ، أحـس أننـى قـد ضللـت الطريـق الطويـل الـذى لانهايـة لـه تحـت قدمـي ، وسـيل مـن الأسـئلة الجـارف يغرقنـى حتـى أنفاسـى ، كانـت كلهـا بـلا أجوبـة شـافية فـى نفسـى ، تمتمـت بصـوت مسـموع : «يبـدو أننـى أسـابق الأوهـام فـى دائـرة مغلقـة ، ولابـد مـن أن أفعـل شـيئاً يريحنـى إلـى الأبـد» .

تتبـدل نظراتـى ، يركبنـى العنـد ، أصبـح أمامـى هدفـاً واحـداً ولابـد مـن بلوغـه بـأى ثمـن كان ، أتنهـد وقـد أسـبلت عينـي ، أتمـدد بطولـى علـى الحصيـرة ، ينبعـث مـن رئتـي شـخيراً مزعجـاً ، أبـدو وكأننـى لـم أنـم منـذ أمـد بعيـد .

أمام مصرف المياه الآسنة كانت صورتى تتراقص على صفحتها وبجوارى البندقية العثمانلى مرتكزة على الأرض ، مسندة إلى جذع شجرة ، نقنقة الضفادع وهى تتواثب بين قدمي ، ثم وهى تقفز فى قاع الماء كانت تضفى على الليل الجامد شيئاً من الحركة ، تعثرت فجأة فى شئ ما أثناء سيرى الحذر ، أشعلت عود الثقاب ، انتثر الضوء الوئيد على بقع حمراء منتشرة على الأرض ، تلمستها بيدى مرتعباً ، كان سائلاً لزجاً مثل القار الأسود يسيل من بين أصابع يدى ، ارتعشت ، نظرت إلى فوهة بندقيتى نظرة اتهام ، وشك فى الذات حين تفقد وعيها فى لحظات الضغط الجنونى ، كدت أغيب عن الوعى ، لأصدق نفسى ، لمحت ورقة صغيرة مهترئة كان طرفها يطل من بين إصبعيه السبابة والوسيط ، جعلت أسحبها برفق وقد ارتعدت فرائصى تماماً ، رحت أفرد صفحتها الممزعة الصفراء أمام ذلك الضوء الشاحب الذى ترسله عيناي على مضض ، الكلمات ترتعش على ضوء عود الثقاب وتنطفئ حيناً حتى أشعل غيره ، علت تمتمتى وهى تنضح بالدموع والأسى :

«صديقى العزيز الذى صار لى أكثر من أخ ، لقد رزقت بولد هصور منذ أيام ، لم يسموه حتى الآن ، ينتظرون عودتى من الجبهة، بل عودتنا معاً وقد تشابكت أيدينا ببعضها البعض ، ولكنى على ثقة من أن اسمه سوف يكون مفاجأة كبيرة لك ، ولهم، ولكن لِمَ لا مادمنا سنعيش معاً على الأرض التى انطبع عليها حلمنا الكبير ، لتشرب جذور الأرض من ذرات عرقنا الـ.....!!» .

عند هذا الحرف كان حزاً أسود من صنع الزمان المتباعد قد قطع عن عيني استرسال الحلم فى محجريهما ، مرة أخرى فقدت صوابى ولسانى ، تناثرت نظراتى هباءً ، وبلاهدف فى غابة الأشجار الكثيفة التى تحدق بىّ من كل ناحية وكأننى أسير فى عالم شبحى كئيب .

جن جنونها ، راحت تركلنى بقدميها ، وتضربنى وهى تهيل التراب على طرحة رأسها الدكناء ، وتعض بنواجذها المدببة على لحم ذراعى ، تسبنى ، وتسحبنى من تحت نعشه الطاهر ، كانت الأعين المتصارعة شديدة الكلوح تفتش عنى ، تواريت منهم بينهم، يركبون رؤوسهم إلى الجحيم ، كانت الورقة الصفراء تذوب فى عرق قبضة يدى شيئاً فشيئاً ، السماء وحدها ترقبنى بعينيها الواسعتين ، وتسمع دبيب قدماى على الأرض وأنا أحثهما على المضى إلى الأمام حيث منازل عائلة الفقيد ، وأصرخ مقسماً بحماس منقطع النظير :

- لن أسمح للحظات الكئيبة أن تكرر نفسها .

صوت رهيب دوى فى جنبات البلدة الكبيرة ، سَقطتُ أرضاً كحمامة مذبوحة ، المدينة كلها تحلم فى عيني ، الرصاص والدم فى الطريق !! .

●●●

« عذراوات على شجرة السكر»

«إحسان» الفلاحة البسيطة ، بائعة المانجو الكادحة السمراء، ذات الجلباب الباهت الخضرة فى لون ترعة الإبراهيمية ، والذيل الطويل المترب المهترئ النسيج ، والطرحة المهفهفة ذات اللمعة الشفافة المزركشة الألوان ، اعتادت على المرور مبكراً فى كل صباح من أمام دار الطالبات المغتربات الخاصة بمحافظة بنى سويف ، وهى فى طريقها إلى سوق «زامبو» ، قادمة فوق حمارها من ناحية الغيطان البعيدة التى تلف أطراف المدينة ، وتنادى بصوت عالٍ ، غير عابئة بكونها ساعة البدرية التى يكون الناس فيها نياماً :

- البلدى ، الألفونس ، العويسى ، السُّكَر .

يغيظ ذلك نجاتى الحارس الذى يهب من نومه مذعوراً، يندفع ناحيتها غاضباً ، وبطرف المنشة التى يهش بها هوام الحقول المحدقة بالدار ، يضرب مؤخرة حمارها كى تمضى بعيداً، تَرْفع إحسان عقيرتها ويديها للسماء ضارعة ، وتدعو الله باكية على كل ظالم قطاع لأرزاق الغلابة .

تنتبه جيلان فجر الدين الواقفة عن كثب لما يحدث قرب بوابة الدار الحديدية ، تترك لوحتها الزيتية التى كانت ترسمها

فـى ناحيـة مـا مـن الحديقـة المواجهـة مباشـرة للحقـول الخضـراء ، التـى تلـوح مـن بعيـد كالحلـم الجميـل علـى صفحـة الأفـق المشـرقة، تهـرول مسـرعة ناحيتهمـا قبـل أن يتطـور الشـجار بينهمـا إلـى مالايحمـد عقبـاه ، تلحـق بيـد نجاتـى التـى كانـت فـى طريقهـا لصفـع وجـه الفتـاة البائسـة :

- لايليق برجل مهذب مثلك أن يضرب امرأة هكذا .

- إذا كانـت قليلـة الأدب والتربيـة ، السـت أزهـار حذرتهـا أكثـر مـن مـرة ألا تمـر مـن هنـا ثانيـة ، وألا تزعجنـا بصوتهـا المنكـر هكـذا .

ثم أخذ يقلدها ساخراً بطريقة مبالغ فيها :

- البلدى ، العويسى ، السكر ..

ابتسـمت جيـلان ابتسـامة رقيقـة ، ونظـرت إلـى الفتـاة متسـائلة بدهشـة :

- السكر ؟! .

- السـكر ياسـكر ، فـى قريتـى كـوم دريجـه الفلاحـون البسـطاء يطلقـون هنـاك علـى شـجر المانجـو شـجر السـكر .

شـردت جيـلان طويـلاً وكأنمـا فـى الاسـم الـذى أعجبهـا ، فمنـذ زمـن ليـس بالبعيـد وفرشـاتها عاجـزة ، حائـرة ، تضـرب بشـعيراتها

خبط عشواء ، تنساح الألوان وتمتزج ببعضها البعض ، تنفلت من أعماق مجهولة رسومات جميلة ، ولكنها كانت تراها غير ذلك ، بعيدة كل البعد عن صورة ما تتراءى لها فى خيالها مشوشة ، غامضة فى أعماقها الغائرة ، حيث طوفان موَّار من الذكريات الأليمة ، وهنالك لاحت أمامها صورته بازغة كالشمس الحانية، عندما كان يجلس أمامها فى البرجولا كى ترسمه بفرشاتها الساحرة ، بعد فترة وجيزة يهب مسرعاً إليها كى يرى بعينيه كيف صَوَّرته ، لايصدق عيناه ، يتمتم بحبور :

- أأنا هذا ؟! .

أناملها الرقيقة كانت لاتَشُف من الواقع شيئاً ، القلوب لها أيضاً أناملها ، تبدى الحبيب فى هيئة ملائكية كهالة من نور لبنية ، الفن ليس وظيفته تجسيد الواقع فقط ، وإنما تجسيد أحاسيسنا ناحيته أيضاً ، كانت هذه هى فلسفتها وأحاسيسها التى مزجتها بألوانها الرقيقة ، ثم سكبتها بأناة على وجهه الذى تبدى شيئاً فشيئاً كقطعة من القمر الفضى ليلة ١٤، تعليقات زملاء وزميلات الكلية أثارت اضطرابها الأنثوى الرقيق ، لملمت متعجلة فرشها وألوانها وورقها ولوحة الرسم ، مضت منصرفة وأمارات البشر الخجلى تُشكل تقاطيع وجهها الجميل .

فجـأة انقبضـت حـين رأتـه يعتـرض سـبيلها بسـياراته الفارهـة وهـى خارجـة للتو مـن بـاب كليـة الفنـون الجميلـة بالزمالـك ، تسـمع تعليقـات بعـض الظرفـاء السـخفاء : «جزيـرة الزمالـك لاتحتمـل كل هـذا القـدر مـن السـيارات الضخـام» .

كان يأتيهـا فـى موكـب عظيـم يشـبه مواكـب الرؤسـاء ، يريـد أن يبهرهـا بقدراتـه الأسـطورية ، وشـهرته العريضـة الضاربـة فى الآفاق، كادت تسـقط أرضـاً مـن هـول المفاجـأة ، ترجـل مـن سـيارته الجيـب السـوداء العملاقـة مسـرعاً ، بإشـارة خفيـة منـه تراجـع حراسـه وأتباعـه إلـى الـوراء ، انحنـى أمامهـا وهـو يمـد يـده إليهـا كـى يأخـذ بيدهـا الناصعـة البيـاض ، كان وسـيماً وأنيقـاً للغايـة ، تجهـم وجههـا الرقيـق الفائـق الجمـال ، أبعـدت يـده عنهـا برفـق مسـاوٍ لطبيعتهـا الرقيقـة ، اسـتوت واقفـة ، ثـم شـرعت تمضـى مسـرعة إلـى حـال سـبيلها ، أحـس برهـان صقـر البـاز رجـل الأعمـال العمـلاق الشـهير بالإهانـة البالغـة ، تملكـه الغضـب التـام ، لـم يـدر بنفسـه ، كان قـد تناسـى ولـم ينـس بعـد حـدوده اللانهائيـة ، جـرى فـى مشـيته وقـد بـدا كمـن أوشـك علـى الإمسـاك بنجـوم السـماء بيـده ، شـدها مـن لوحـة الرسـم التـى كانـت تطويهـا تحـت إحـدى إبطيهـا ، صـرخ فـى وجههـا بنبـرة تحذيـر عنيفـة :

- اسمعى ، لقد اشتريتك من أهلك ، بل اشتريت أهلك أنفسهم ، أما الحبيب التعس فلسوف أسحقه كأى حشرة تافهة تعترض سبيلى .

ضربت جيلان أطراف فرشاتها بعصبية على اللوحة القماش، انسابت الألوان العشوائية فى تفاصيل جنونية ، سموات وأراضين وأشجار تهوى تمزقها الريح ، أفرعها جسوم ملساء مشرعة للآفاق الشفقية ، وشموس تسطع فى كل مكان والدنيا غروب وظلام ، موسيقى النفس المكبوتة تعزف ألحاناً مبهجة ، مبهمة ، همجية ، مؤلمة تبكيها ، وتسيل الدمع الساخن على خديها الملتهبين بحمرة الاختناق : « سامحك الله ياأمى» ، نزعتها منفعلة من فوق الحامل الخشبى ، ألقت بها بعيداً ، لحسن حظها طارت اللوحة القماش المخضبة بالألوان إلى الرصيف الجرانيتى الأحمر ، وليس إلى أرض الحديقة الطينية .

فى اليوم العاصف المطير ، كانت الأرض موحلة وغارقة فى الدماء ، ارتمت إلى جانبه منهارة وهى تبكى متشنجة ، كانت تنظر إليه نظرة الحب المُعتقل فى صندوق حديدى ، الملقى مكبلاً فى الأصفاد فى أعمق قيعان بحار الأرض ، كان ينظر إليها نظرة الموت ويبتسم ، مط شفتيه بالقرب من أذنها المتدلى عنها فص رقيق من الألماس الثمين ، وقال هامساً كمن يوشوش أصداف البحر :

- لولم أحُز فى حياتى كلها غير هذه النظرة لكفتنى .

صرخت وهى تهز رأسها كالمجنونة ، العالم يبدو أمامها مبهماً وحقيراً ، ومستغلقاً على أكثر العقول فهماً ، راحت تجتر على ثنايا لسانها الوردى مقولة قديمة له يوم كانا يمضيان معاً من حى الزمالك العريق ، إلى بيت أهلها العتيق على كورنيش حى جاردن سيتى الراق :

- نحن لانحتاج إلى علماء ليفسروا لنا ماهية الحياة ، الشيطان وحده يكفى .

فارقت يده بصعوبة بالغة ، ونظرت إليه نظرة واشية لم تكتم حقيقة كلمات متأججة كانت تدور فى خبء نفسها : « مازلت أحلم ياحبيبى باليوم الذى نصعد فيه معاً إلى بيت أهلى البسيط».

وكأنما قد سمعها ، ضغط برفق على طرف أناملها الرقيقة، مالت على أذنه وهمست مبتسمة وهى توجه زاوية عينيها إلى عمارة كالحة :

- نحن لسنا أثرياء كما تتصور ، الصيت ولا الغنى كما يقولون .

نكس رأسه طويلاً ، وارتعشت نظراته وزاغت فى مهوى لاقرار له ، مسحت برفق عبرة ترقرقت خلسة على جانب أنفه الدقيق ، وقالت برقة وعذوبة :

- كونهم قد حرموك ظلماً من التدريس فى الكلية فهذا لايعنى نهاية الحياة .

ابتسم ابتسامة قاطعة حازمة ، وهو يديم نظرة طويلة فى محياها الأسطورى :

- أريد الحياة لأنك الحياة .

تبسمت وهى تكفكف عبراتها ، وتودعه ، وقد أوشكت ترفع ساقاً بعد ساق بغية القفز إلى جانبه فى سيارة الإسعاف ، يده وهمساته المحتضرة أعادتها إلى صوابها ، إلى قصر الزمالك الفخيم ! .

جرت ياسمين الطفلة الصغيرة ناحيتها متهللة :

- مامى مامى .

أرتمت ياسمين فى أحضانها طويلاً ، كانت الدموع تطفر من عينيها وقد بدا لها فى ناظريها يتلاشى مبتعداً ، يتقدم فى اللحظة ذاتها ناحيتها كمسخ قمئ ، هذا الوسيم الفارع الطول ، لم تكن هى وحدها من تراه هكذا ، كثيرون غيرها فى البلد كلها كانوا يمقتونه مقتاً شديداً ، ويتمنون التخلص منه بكل وسيلة ممكنة وغير ممكنة، ولكنه كان منتبهاً ومحتاطاً لنفسه جيداً ، ويمضى وفى ظهره أعين لاعينين كما كان يردد دائماً ؛ أعين تحرسه وترصد له كل شئ ، وتأتى له بكل الأخبار وأدق الدقائق

والتفاصيل ، كان كالحرباء يتلون بكل الألوان متى دعت الحاجة إلى ذلك ، بل كأخطبوط أسطورى رهيب بألف وجه ويد وعين وقلب ، كان الجميع فى قبضة يده يحركهم وينططهم بالحبال كالدمى فى مسرح العرائس كيفما شاء ، ووقتما يحلو له ، فلكل واحد منهم ملفه السرى الخاص بانحرافاته وزلاته ونزواته ، ذلك الملف الذى صنعه كل واحد منهم بيديه وسقطاته ، أو لُفِّقَ له زوراً وبهتاناً ، وبرهان كامن كصقر الباز فى غيوم السحب الرابضة فى العوالى، ينتظر فرائسه بلهفة صياد مشتاق ، مشتاق للسيطرة والنصر والضحك على كل شئ ومن أى شخص كائن من كان ، وفى حقيبة ما أخفاها فى مكان سرى كانت تحتوى على الكثير من هذه الملفات الخطيرة التى تمس الكثيرين ممن لهم اسمهم وثقلهم فى الدولة والمجتمع ، وكان حين يجلس إليهم ويقارعهم كأساً بكأس يضحكون له غصباً، وإذا أملى عليهم مشيئته ، لايملكون حيلة إلا القبول والأنصياع لأوامره المستفزة ، أو يكون مصيرهم الفضيحة والسجن والذهاب وراء الشمس ، فمنذا يكون هذا الجرو اللعين الذى يتجرأ على الإمبرطور ، هباءة وتلاشت فى الفضاء بطرقعة إصبعين لا أكثر .

دنا منها يغتصب قبلة عنيفة من شفتيها الجافتين ، مثل زنبقة تلاشى أريجها ، وانكفأت ذابلة على نفسها ، تمقت الحياة

بكل مافيها ، كانت تحيا فقط من أجل زهرتها البريئة التى لاحول لها ولاقوة ، الزهرة أيضاً تلاشت واختفت بين غمضة عين وانتباهتها ، حين استيقظت من نومها ذات مرة لم تجدها فى أى مكان ، الجلاد المنتقم الغيور كان هادئاً يضحك ، غير عابئ بمن تموت متوسلة تحت قدميه ، جن جنونها ، وحين غافلت الأعين الرقيبة ذات ليلة مدلهمة هاربة ؛ أعادتها زعانفه الأخطبوطية السادية الرهيبة المنتشرة فى كل مكان ، فقالت له فى لحظة انفعال جنونية :

- سيأتى اليوم الذى أفقأ لك فيه كل أعينك التى تتباهى بها، وأذرعك التى تهدد وتعذب بها ، وأوجهك التى تخيف بها عباد الله ، وقلوبك التى تستبدلها لكى لاتموت أبداً .

ركلها من سبيله بنظرة ازدراء وقحة ، ومضى فى خيلاء كالطاووس ذى الرياش المبهرة الألوان ، غير مبالٍ بالزهرة التى أوشكت أن تأفل إلى الأبد .

وحين دخل ذات مرة مخبأه السرى الذى يدير منه عالمه الغامض البشع لم يجدها فى مكانها ، فصرخ صرخة غضب لامثيل لها ، وسرعان ماوجه إليها كل أسهم اتهامه وشكوكه الفتاكة ، هى فقط ، ومَنْ غيرها يجسر على الإتيان بمثل ذلك العمل الرهيب !!؟.

تقدمت الطالبة الجميلة « درة سعادة أبو النجا» من ناحية مدخل القصر العتيق ، الذى تبرع به صاحبه الثرى قبل أن يرحل عن الحياة للشئون الإجتماعية ، وبدهشة بالغة مالت على الأرض، والتقطت اللوحة الزيتية الملقاة على الرصيف الذى بللته قطرات ندى الصبحية ، تأملتها ملياً ، ثم تقدمت ببطء ناحيتها وهى تمصمص شفتيها إعجاباً ثم قالت :

- ماأروع شجرة العذارى هذه .

انتبهت إليها جيلان الشاردة للغاية ، تناولت منها اللوحة ، وتطلعت إليها طويلاً ، ثم تساءلت إليها باستغراب المستنكر :

- أأعجبتك ؟! ، إنها لامعنى لها ، إنها محض خطوط عشوائية تافهة .

- بل أتصور أنها تعكس كل مايدور فى داخل النفس البشرية من صراع ومعاناة ، يبدو أن مشاكل فتيات الدار الكثيرة قد أثرت فيكِ جداً ياأستاذة .

- معك حق ، معاناة النفس البشرية ، وأية معاناة ! .

ثم أردفت جيلان تكرر سؤالها كالمستفيقة وكأنما لاتصدق ماقالته درة للتو :

- أأعجبتك حقاً ؟! .

ابتسمت درة دهشة ، وهى تمسح مشرفة الدار بنظرة من لايصدق حقيقة كونها إنسان مثلها مثل بقية البشر ، تحس وتتألم وتبكى ، وتغضب ، وتثور ، كل هذه المظاهر الإنسانية وغيرها عمدت جيلان إلى إخفائها طويلاً عن الجميع منذ أن جاءت بها عمتها مفتشة الشئون الاجتماعية خفية إلى هذا المكان النائى الجميل، ولكم ظلت تستر الكثير من أوجاعها وآلامها وراء ابتسامتها الملائكية الرقيقة ، تلك الابتسامة التى كانت لاتفارق وجهها البتة، وتزين نظرات عينيها بالوداعة والحكمة ، حتى أن من رآها وهى تنبرى لحل مشكلات بنات الدار وعقدهن الشخصية ؛ ولاتتأخر عن مشاركتهن فى أحلامهن ولهوهن البرئ ؛ كان يتصور للوهلة الأولى أنها أماً لفتيات الدار وعلى مابينها وبينهن من فارق زمنى قليل ، ذلك الفرق الذى يكاد يُعَدُ بالسنوات على أصابع اليد الواحدة .

طال تأمل درة فى اللوحة ، ثم رفعت رأسها لترد على سؤال جيلان قائلة :

- أجل ، إنها رائعة للغاية ، إنها نحن ، ريشات طائرت متماهيات مع الطبيعة القاسية ، كأوراق على أغصان الشجر الهائمة فى مهب الريح .

وبطرف إصبعها الرقيق راحت درة تشير مبتسمة إلى نقاط محددة على اللوحة :

- أنا النكد بعينه ، راجية مهرجة الدار ، نعمات كلام ستات، أنغام الكئيبة ، مفيدة غير المفيدة ، وحتى ماهى .

قالت هذا الاسم الأخير وهى تغمز بعينها ضاحكة حتى خالجت ضحكاتها الدموع ، وأكملت بنبرة لؤم :

- ماهيناز شريرة الدار .

غير أنها شردت فجأة ، وعبس وجهها ، وشخصت بعيداً بناظريها إلى حيث لايمكن لأحد سواها أن يرى فضيحتها الثاوية فى كنف عالمها السرى ، غمغمت قائلة كالمحدثة نفسها :

- هيه ، مَنْ يرسم مَنْ ، نحن الذين نرسم الحياة ، أم أن الحياة هى التى ترسمنا ؟!، تحدد لنا مسارنا الإجبارى ، توجه خطاوينا ، تصنع خطايانا غير المعقولة ، أم أننا الصانعون لكل هذه الملهاة العبثية ؟!.

كانت جيلان على علم بالكثير من الأشياء التى تطويها تلك الفتاة فى داخلها ، وكذلك غيرها من الفتيات اللائى يطوين الكثير من الأسرار والآلام فى أنفسهن الرقيقة ، شدتها برفق من كتفها ، احتضنتها ، ثم تركتها تستلقى طويلاً على كتفها وتبكى ،

أثناء ذلك كانت تفكر فى وسيلة ما لإنقاذ تلك الفتاة التى غرر بها خنزير لعين.

بنات الدار فى السويعات الأخيرة من ليلة رأس السنة ، تركن مذاكرتهن وغرفهن فجأة ، أبدين حالة من التمرد اللطيف ، ليذهب الغم والحزن وكل شئ يجلب النكد إلى الجحيم ، يتجاوزن تعليمات الريسة أزهار ، يطفئن الأضواء ويقدن الشموع الملونة، يلتففن من حول الحارس الظريف نجاتى ، يضحكن ، ويلقين بالنكات والقفشات ، كن ممتلئات بالبهجة والسرور ، وقد رحن ينتظرن اللحظة الفارقة بين عام مضى ، وعام جديد أوشك أن يلوح فى صفحة الأفق ، يلقين بفيض من الدعاء والمنايا البريئة فى رحاب الجد والهزل ، والعبرات المختنقة ، وفجأة صرخن بنبرة غنائية طريفة :

مجموعة أولى من البنات : «بنبرة استفهام هامسة»

إيه إيه ؟! .

مجموعة ثانية من البنات : بيقولوا ثورة .

مجموعة ثالثة من البنات : ثورة مدينة .

مجموعة أولى من البنات : ليه ليه ؟! .

الجميـــــــــــع : جعانين جعانين،جعانين جعانين

شعانين شعانين

الفتاة راجيـــــــــة: « ممسكة نجاتى من معصمه»

هم بسرعة ياواد يانجاتـــى ..

هات لنا أوزى من عند الحاتى ..

الفتاة نعمـــــــات : كتر سلطة وعيش وخضـــار ..

وفلفل حامى مولع نـــــار ..

مجموعة من البنـــات : وسيب الباقى على الشطـــار..

وسيب الباقى على الشطـــار..

نجاتـــــــــــى : بس استنوا ، بدى استفهـــم ..

إيه الأوزى ، ومين الحاتـــى ..

الفتاة راجيـــــــــة: أما الأوزى يبقى أخـــوك ..

لو تندهله يقولك بـــــــاء ..

مجموعة من البنـــات: باء باء باء ، هاء هاء هاء

نجاتـــــــــــى : عرفنا الأوزى ، طب والحاتى ؟..

أنغــــــــــــام : أما الحاتى لودورت فى كـــل ..

عيلتكم مش ح تلاقى واحد زيه..

الجميــــــــــع : قـــــــوام يانجـــــاتى

هيـــــــــه

ليلتها ضحكت جيلان فجر الدين كما لم تضحك فى حياتها من قبل ، أزهار كبيرة المشرفات نفسها ، وهى التى لم تضبط مرة واحدة فى حياتها متلبسة بابتسامة ، مجرد ابتسامة كما كانت راجية تقول دائماً ضحكت أيضاً ملء شدقيها !.

ولكن سرعان مارانت سحابة من الكآبة على وجهها الجميل ، وشردت فى سؤال ما كان يلح كثيراً على خاطرها : « إلهى ، تُرانى متى سأبدأ اللعب والمساومة معه ؟».

كانت مسألة استرداد روحها الحقيقية ، ليست التى بين جوانحها ويطويها إهاب أبيض ناصع رقيق ؛ بل روحها وقلبها وعقلها وكل شئ فى الحياة هى السبب الوحيد فى بقائها حية ترزق حتى هذه اللحظة ، فى تلك الأثناء دنت منها راجية ، دفعتها برفق من كتفها بجانب كتفها ، وقالت بنبرة تهريج :

- فِيمَ شرود جى جى جميلة الجميلات ؟ .

- فى الدنيا وأحوالها العجيبة ، بالأمس القريب كنا نبكى ونموت فرقاً فى جلودنا ، نحمل بأيادينا العصى الغليظة ، والسكاكين وحتى الشوك والملاعق والمغارف وكل شئ حاد تصادف وجوده فى سبيلنا ، سددنا كل أبواب ونوافذ الدار ، ولم ننم حتى الصباح لندافع عن أنفسنا ضد أولئك الشبان اللئام المجرمين الذين هددوا باقتحام الدار عنوة ، وأخذ نعيمة غصباً من بيننا ، ولست أدرى ماذا فعلت لهم نعيمة على وجه اليقين ، إنها لم تتكلم بعد ، ولكننى سوف أجعلها تنطق بأية وسيلة ، لأننى جد خائفة عليها أيما خوف ، بل عليكم جميعاً .

كانت جيلان تتحدث لاهثة وكأنها تجرى فى مضمار سبق محتدم ، ثم قاطعت نفسها بنفسها واستطردت متنهدة :

- هيه ، والليلة نضحك ونغنى ونرقص .

قالت راجية وقد شحب وجهها واصفر واخضر وتلون بكل الألوان التى يعرفها البشر والتى لايعرفونها كذلك ، وعلى غير عادتها تكلمت بنبرة جادة جداً هذه المرة :

- النسيان ينسينا الأحداث كلها ، والأحداث الأليمة تنسينا النسيان نفسه .

شـردت هـى الأخـرى بعيـداً ، وبانـت فـى عينيهـا سـحابة كـدر وحـزن بالغـين ، ثـم سـرعان ماتلاشـت وتحولـت إلـى ابتسـامة عريضـة وقالـت بتهريجهـا المعتـاد متقمصـة شـخصية محمـد أبوسـويلم فـى فيلـم «الأرض» :

- أنتِ وضعتِ الخطة المحكمة ياأستاذه ، ونحن كنا رجالاً ، ووقفنا كما يقف الرجال .

مسحت جيلان بحنان جارف على شعر الفتاة الأسود الجعد، المحدودة الجمال ، ثم عانقتها وكأنما لتخفى عبرة تسللت خلسة من موق عينيها ، تهدهدها كأم رءوم ، هامسة فى نفسها وتغالبها حسرات الذات والآخر : «يامن خلفت البنات يامن حملت الهم إلى الممات» .

حين سمعت صوته فى الهاتف ، وأنصتت لفترة من الوقت مذهولة مفجوءة ، أيقنت بعدها أنه لن تكون هناك مباراة بينها وبينه ، انتهت اللعبة ، ليس لكونها قد كُشفت ؛ وافتضح سرها ومخبأها ، ولكن لأنه لاتوجد مباراة بلاهدف ، تهاوت كلماته الصارخة مع السماعة التى انفلتت من بين يديها ساقطة على الأرض ، جرت صاعدة فى درج السلم كالمجنونة ، تجاوزت درج الأرض إلى درج السماء ، ألفت شجرة العذارى ضاربة بأفرعها اللانهائية الامتداد فى عنان السماء ، راحت تقفز متنقلة بين

الفـروع فـى ليـل سـرمد ، لِـمَ لا ، وحياتهـا رحلـة هـروب واختفـاء ، وبحـث عـن مسـتحيل ، كذلـك كان هـو ، يفتـش عنهـا فـى كل مـكان علـى سـطح البسـيطة ، وكالـذى أصابتـه فـى عقلـه لوثـة بغيضـة ، ليـس حبـاً فيهـا ولا شـوقاً إليهـا ، وإنمـا الخشـية علـى الإمبراطوريـة العظمـى التـى أوشـكت أن تمحوهـا شـعيرات ريـاش هائشـة تذروهـا أيـد مجنونـة .

●●●

« الرحيل إلى الزمن الأخضر»

(١)

بين انطفاءات الغيب وومضات الوعى كانت الذكريات تتأرجح بداخل جسدى المسجى على الأرض ، وتتقلب على أطياف عالم مبهم غريب ، فى البداية لم أعِ شيئاً مما حدث لىّ ، أو إلام ستصير نهايتى ، شئ ما يصطك بشدة بجوار أذنى على الأرض ، يحدث دوياً هائلاً ومرعباً فى مسمعي ، ينهرنى آمراً وهو يركلنى بقدمه كزبانية جحيم :

- هيا انهض .

أفتح عيني برهبة ، المكان مظلم موحش ، والرائحة كريهة خانقة لاتطاق ، أتلمس جانبى الأيسر وقد تخدر من طول رقادى عليه ، أتلفت حولى ذاهلاً : «أهذا هو القبر ؟!» ، أثار ذلك الهاجس فى نفسى أشياءً كثيرة كان علىّ أن أُفسرها بأى ثمن ، أتمتم :

- هل أنا حى أم ميت ؟!.

برودة المكان ، وصوت الفئران وهى تتواثب عند قدمي كلها أشياء كانت تؤكد لىّ أننى مازلت حياً ، مرة أخرى أعاند مع عيني

المعاندتين ، أفتحهما بعد عناء ، أحاول التركيز فى ذلك الشئ الهلامى الواقف أمامى ، أتساءل فى نفسى : « أهذه هى كوشينا عاملة النظافة فى فندق موسكوفا الجميل المطل على شاطئ البحر الأسود ؟ ، مستحيل ليست هى ، أهذه الغرفة السابحة فى الظلام تحمل الرقم ١٠١١؟ ، أين صوت البحر ورائحته الندية ونوارسه البيض التى كانت تصطدم خطأً بزجاج نافذتى» ، أفقت من شرودى على مقدمة الحذاء الضخم ينغرز بشدة فى بطنى ، بلسان عربى فيه عجمة كعجمة لسانى أسمعه يكرر الأمر :

- قلت لك انهض ، ألاتسمع ؟، هيا تعال معى .

يخرج صوتى مخالجاً تأوهاتى ، أنفاسى تذر ثرى الأرض فى وجهى:

- دعنى أفهم ماأنا فيه أولاً .

- سوف تستعيد ذاكرتك بعد قليل من الآن ، هيا .

صوت ما كان يدق ناقوس الخطر فى أعماقى ، عند منثنى النفق المظلم رحت أتقلب على جمر الذكريات وفى حلقى غصة ومرارة لاتوصف ، كانت جُل أحلامى لاتختلف عن أحلام فتاة ساقطة عرفت طريق الحقنة والكأس والسيجار المحشو بفتات من أوراق البانجو الخضراء ، صورة سيانا البلغارية الشقراء تمشى أمامى ، أكرر عليها كلماتى بصوت يختنق وذاكرة ترتعش :

- أوه فاتنتى سيانا لقد عشت حتى العقد الخامس من عمرى أطارد اللذة فى أوكارها كيلا يطاردنى مثل هذا السؤال السخيف مَنْ أنتَ ومِن أين تكون ؟.

ارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة ، وهى تقدم لىّ فوهة الكأس التى تشرب منها :

- دعنى أخمن ذلك بنفسى أيها الساحر المشرقى القادم من الغرب .

جعلت من يدى حائلاً بين فوهة الكأس وبين شفتي ، أتطلع إليها من وراء الغشاوة التى تغطينى وكأنها نسيج العنكبوت بخيوط حمراء لانهائية :

- بل دعى فضولك لنفسك ، فمازالت عظام جسدى تؤلمنى من طول مطاردتى لك على جبال فارنا الخضراء ، ثم فى مياه البحر المنعشة .

تهيل على شفتيها ابتسامة ترابية لامعنى لها ، ثم تهب فجأة وقد تفجرت الحيوية فى وجهها الأسيل ، تجذبنى بأطراف أناملها الرقيقة من يدى نحو ساحة الرقص الغارقة فى الضوء اللازوردى:

- تعقلى ياصغيرتى .

تلتفت إلىّ ، تقاوم عنادى بعنادٍ أشد :

- هذه الموسيقى تحرك الصخر فمن أى شئ أنتَ ؟ .

تراقصت عيناي فوقها ، كانت تسبح فى بحر هادر من الأنوثة الطاغية ، ترتدى جونلة قصيرة سوداء ، وبلوزة حمراء شديدة اللمعة ، ومشقوقة عن فتنة توخز الأعين بسهام نارية ، إيقاع الموسيقى المتسارع كان يدنيها منى تارة حتى الالتصاق ، ثم يُنئيها بعيداً عنى تارة أخرى ، جذبتها برفق من مرفقها متسائلاً :

- تقولين من أى شئ أنا ، أحسبنا جميعاً قد انطلقنا من فوهة واحدة .

بالرغم من إيقاع الموسيقى الصاخبة الذى ازداد سرعة حتى بدا الحال وكأننا على حافة الجنون ؛ إلا أنها توقفت تماماً عن الرقص ، كانت تبدو أمام ناظري كمن نهستها حية ، تحدجنى بنظرة نارية وهى تقول بصوت عالٍ تغيرت نبرته الودودة فجأة :

- أعدك بصدق أيها الفيلسوف أننى سوف أشرب كثيراً حتى الثمالة كى أسمعك أو لاأسمعك على الإطلاق ، سيان الأمر عندى .

تحت القبة السوداء وقفت انتظرها خارج الملهى الليلى، السماء أشرعت إلى الأرض عيون مسايلها الدافقة ، الغيث يغطينى، أتراجع إلى الوراء حتى التَندة الملتفة دائرياً حول الملهى ، فوقها لافتة تخفت وتضئ بمختلف الألوان ، أقرأ بصوت مسموع :

- المطعم اليونانى ، أوه هاى زوربا ، هاى أوناسيس ، هاى أفروديت .

أرمى ببصرى فى اتجاه البحر المشاطئ للبلدة الجميلة ، أجده غارقاً فى غَلَس الظلام ، صوت هدير الأمواه المرتطمة بحافة الشاطئ فتلفظ زبداً ، تنعكس عليه الأضواء السارحة من بعيد ، ترسم صورة متلألئة فى عيني ، تنطفئ ، أنتبه إلى صوتها ينادينى من داخل السيارة اللادا الحمراء ، أخف إليها مسرعاً ، أمد يدى إلى مقبض الباب الأمامى كى أجلس بجوارها ، أتصلب فى مكانى، شئ حاد ذو فوهة مدببة ينغرز بشدة فى جانبى الأسفل تحت إبطى من ناحية القلب ، وعصابة كريهة راحت تلف وجهى كله ماعدا طاقتى أنفى ، منهما تسلل الشعاع الأسود الخانق ، أفقد الوعى !.

يدفعنى من مؤخرتى ببطن قدمه ، أنطرح مضرجاً فى دمائى على الأرض ، أسمع صوت الباب يصفق بحدة ، ثم حركة المفتاح فيه وهو يدور ليحكم إغلاقه ، أقاوم الألم والدهشة ، أهب مترنحاً وصارخاً :

- لماذا تعذبوننى هكذا ياأولاد الشياطين ؟.

أكاد أختنق ، يداى حول عنقى تطوقانه ، تنشبان فيه أظافر حادة ، أسحبهما بالدم متشنجاً حتى صدرى ، يأتينى عبر سدول الظلام صوتها الناعم ، تعاتبنى :

- كنت أحسبك أكثر صبراً .

- سيانا هو ذا مالى كله تحت أمرك .

تتحسس ذراعى بيد خبيرة ، يخرج صوتها مختلجاً بآهاتى :

- لقد جفت عروقك وأصبحت نافرة مثل أسلاك شائكة .

- أوه سيانا .

- حسناً سأتصرف .

تغرز شيئاً رفيعاً موجعاً فى وريدى ، أصرخ ، آخذ أنفاسى ، يزداد اختناقى :

- مابالهم يختطفون رجلاً كهلاً عاجزاً مثلى ؟!.

ارتمى كالمجنون على الباب الحديدى أدقه بكلتا يدي ، أجثو يائساً على ركبتي ، تخفت حدة دقاتى شيئاً فشيئاً مع همساتى :

- خذوا ثروتى كلها وأطلقونى .

يزداد غليان الدماء فى عروقى ، أنتفض ، صوتى يتحشرج، يخرج من حلقى كما يخرج الجمل الكبير من سم الخياط ، أكاد أغيب عن الوعى إلى الأبد ، أقاوم ، أستسلم ولكن ، فجأة أحس برأسى تستوى فوق راحة الظلام ، تهدهدنى كطفل وليد ، أنتبه بكل حواسى المُغيَّبة ، يد ما تمسح عن وجهى حبات العرق الكثيفة، تهش عنه الهوام والحشرات المنساحة فوقه ، حركتها الرتيبة دفعت نحوى شيئاً من ذرات الهواء النادرة ، أتنهد ، ذات اليد تربت على رأسى بحنان جارف ، أهمس مستغرباً :

- يا الله .

يُدفن رأسى فى صدر دافئ ، تأخذنى سِنة من النوم ، أستفيق على صوت حاد يدق على الباب :

- قردان عالباب [1] .

يتركنى برفق ، أسمع صوت خطواته تتجه نحو الباب ، ألمحه من ظهره عبر الضوء الخافت الذى تسلل من شق طولى مع صوت الباب وهو يفتح قليلاً ، كان عملاقاً فى ظهره انحناءة تجعله منكفئاً على نفسه ، كان يتحرك بصعوبة بالغة ، تناول شيئاً ما ، استدار إلى الداخل مع صوت انغلاق الباب ، وعودة الصورة الشبحية المعتمة تماماً ، أحس به يبحث عنى ، أناديه بالكاد بصوت يقطر بالإعياء والموت :

- إننى هنا أيها الشيخ الطيب .

مد يده بشئ ما صدمنى فى رأسى دون قصد منه ، أتناوله بيد وأتحسسه بالأخرى ، أظنها صُحَيفَة الطعام ، ترتعش يدى ، تسقط أرضاً ، أكاد أجن ، أتلمس بيدى وفمى الجائع سطح الأرض الموحل ، أمسك شيئاً مستديراً كالكرة ، أمسحها ، أقذف بها فى فمى منه ، أبصق فى وجه الأرض ساباً لاعناً ، أسمع صوت ضحكة وقورة خافتة تنبعث من ناحية ما فى الغرفة التى أجهل كنهها تماماً !.

صر الباب صريراً مزعجاً وكأنه لم يفتح منذ زمن سحيق، ألمح الشبح العملاق واقفاً بين دفتى الباب ، من الخط الرقيق الخارجى المضئ حول جسده المعتم عرفت أنه الشيطان المسئول عن عذابى اليومى ، بل اللحظى ! ، لايمكن أن يكون أبداً من مملكة البشر ، هببت فيه صارخاً ومتناسياً أوجاعى وماآلت إليه حالى من ضعف وهزال :

- لماذا تحتجزنى السلطات البلغارية هنا ، سوف تحتج دولتى بشدة على هذا التصرف الأحمق ، أو أن تكونوا المافيا فهذا شئ آخ.....

قبل أن أنطق بحرف آخر بصق فى وجهى ، طبق صفحة يده على صفحة وجهى ، أسقط على الأرض متناثراً ككأس زجاجى تهشم للتو، الدلو المعدنى الذى نقضى فيه حاجتنا يتلقى اصطدام رأسى بحافته المسنونة ، يدمينى ، ينقلب أرضاً ، يتدحرج مع صراخى المتواصل ، يصطدم بأشياء أخرى وفئران فرت مذعورة، تسحقنى الأصوات الرهيبة يرددها الصدى مع رائحة أنتن منها لم أشم فى حياتى !.

صرخ السجان فى بوحشية غير مسبوقة :

- هيا انهض يابن الـ.....

يولى وجهه شطر الناحية الأخرى للمكان ، أعرف ذلك من تلاعب الضوء الخافت القادم من العمق على تعاريج جانب وجهه، يطلق صرخة غليظة حقود :

- وأنت أيضاً أيها الكلب الحقير ، هيا تعالا معى .

يدفعه أمامى براحة يده من الخلف ، ثم يدفعنى فى أثره بذات الهمجية ، نكاد نسقط معاً ، نبدو كقطيع من البهائم تسوقنا الأرجل والشتائم البشعة .

أبحث عن عينى ، أستعيض عنهما بالأثر ، أُضيق الخطى بين قدمي حتى لاأسقط مرة أخرى ، مكرهاً أُضطر إلى إفساح ما

بينهما ، أتعثر فى الوهم ، أتصور أن الشيطان يفغر فاه تحت كل خطوة أخطوها ليبتلعنى ، أصرخ فى سريرتى : « إلى متى سأظل حبيساً لك أيها الزمن الأسود الغارق فى الدماء ؟!» .

يسمعنى دون أن أنبس بشئ ، يمد راحة يده إلىّ :

- هذه اليد الغليظة سوف تصافح وجهك كثيراً أيها الشيطان .

أتلقاها بصرخة رهيبة ، كلماته تحفر أخدوداً عميقاً فى نفسى، أهمس ساخراً من نفسى : « البحار العظيم فقد نجمه القطبى فى بحر طامٍ لاشطآن له».

صوته الأجش يسقط مرعباً فى مسمعى رغم شرودى إلا أننى انتبهت :

- إنتظرانى هنا ريثما آمركما بالدخول .

امتثلنا صاغرين لأمره أمام باب كبير، من فوق كتفه المرتفع ألمح خيوطاً من الضوء تتسلل من بين الشقوق الطولية ومن تحت عقب الباب ، تقدم نحو الباب ثم طرقه بأدب جم ، شد قامته حتى آخرها وهو يفتح الباب داخلاً لمسافة نصف متر :

- ها قد أحضرتهما ياسيدى .

صـوت جهـورى قـرع مسـامعنا ، أحـس بقلبـى الهَيـوب ينتفـض بشـدة مـع تقلصـات أمعائـى :

- أدخلهما أيها العريف مائير .

يلتفت نحونا ، يهتف بنا صارخاً فى وجهينا :

- تقدما .

أتقـدم مرتعشـاً وكأن فـى قدمـي الأغـلال ، يطعننـى بلسـانه الحـاد وهـو يشـدنى بيـده مـن تلابيبـى :

- اسرع بدون تلكؤ يابن الزانية .

تفتـق كلماتـه غشـاء القدسـية ، دِثَـار أمـى ، أسـحقه بنظـرة غضـب لاتوصـف ، أكاد أرد لـه الإهانـة بقبضتـى المتحفـزة ، تمنعنـى حلقـة الضـوء الباهـرة التـى سـقطت علـى عينـي فجـأة ، أصـرخ مـن الألـم ، أُطوق وجهـى بذراعـي ، ذات الصـوت الجهورى أمرنـى بحـدة مقيتـة قائـلاً :

- ارفع ذراعيك عن وجهك حتى أعرف من أنت .

لـم ألـبِ مطلبـه فـى التـو ، انتظـرت هنيهـة ثـم رحـت أسـفر عـن وجهـى شـيئاً فشـيئاً ، جعلـت أفـارق عالـم الظـلام القاتـل فـى تـأن شـديد ، عينـاي تبـدوان للناظريـن كعينـي حيـوان هلامـى غريـب

الهيئة ، أسحبهما متراجعاً وراء جفنين مسبلين اتقاءً لذلك الضوء الساطع بشدة كشمس الظهيرة الحارقة ، أنطق بصعوبة وعصبية:

- ماذا فعلت حتى يقبض علىّ وأهان هكذا أليس.....

تقاطعنى يد مائير الغليظة ، أصرخ متأوهاً ، أشعر بقفاى يشع ناراً من قوة الصفعة التى تلقيتها ، الصوت الجهورى القابع خارج دائرة الضوء ينفث فى مسمعي ضحكة شماتة سخيفة :

- دعنا نتعرف إليه أولاً أيها العريف مائير .

- أمرك سيدى .

أحس به يتراجع إلى الوراء فى خضوع جم، أفتح شقاً صغيراً فى كلتا عيني ، من بين أهدابى المشتعلة رحت أحدق فى مصدر ذلك الشئ السابح وراء غلالة كثيفة من الدخان ، أنطق وقد غلفت كلماتى الدهشة :

- ستتعرفون إلىَّ.....؟!!.

- نعم نود أن نعرف مَنْ أنتَ وماذا تريد منا ، ولماذا أحضرك رجالنا إلى هنا .

لم أره وهو يقلب الصفحات فى ملف أمامه ، وانما سمعت صوت خشخشة الورق وهو يقلب على سطح المكتب الذى يجلس

وراءه ، ثم صوته وهو يأتى من عمق الصورة الشبحية المرتسمة أمام عيني الكسيرتين :

– أأنتَ كاتب ؟.

– كنت .

– والآن ؟!.

– لقد تجمدت عند أسوار التجربة الفاشلة ، هه حتى أننى لا أعرف فى أى زمن أو مكان نحن !.

– هه ، كلكم تكتبون بمداد من النار ، ثم لايكتوى به غيركم فى النهاية .

ضحك ضحكة خبيثة ثم قال آمراً :

- خذه إلى الزنزانة حتى نَبت فى أمره .

بسرعة البرق الخاطف سحبتنى يد مائير الفولاذية من قفاى قبل أن أنطق بأية كلمة من تلك الكلمات الكثيرة التى كانت تدور فى خلدى ، أسمع صوت ارتطام ثقيل يأتينى ممزوجاً بصوت غاضب جهير يقول :

- أماأنت فجميعنا يعرفك أيها الجرو القذر ، لقد جعلتنا أضحوكة أمام العالم كله .

يلاحقنى صوته الصارخ المتألم حتى نهاية الدهليز الذى تصطف على جانبيه الزنازين الحديدية ، يفزع فى كوامن نفسى هواجس الفضول ، أنسى ألمى ، أعبر أسوار عالمى البغيض ، أتساءل فى رعب وصراخ مدو :

- ماذا جنت يداك أيها الشيخ الطيب ؟!.

تجيبنى قبضة قاتلة ، وإغماءة طويلة تبدو أبدية .

●●●

(٢)

كانت كل الأشياء من حولى طلاسم يصعب توصيفها فى صورة واضحة المعالم أو حتى مشوشة ، أعاود الارتكاز قائماً على ومضة كانت تبرق فى حلكة الظلام فجأة ثم تتلاشى ، أسقط مرة أخرى فى جُب عميق لا قرار له من الأوهام السود ، والخواطر العجيبة :« أهذا هو قاع الزمن ؟!» .

الباب يفتح فجأة ، العريف مائير يدفع به أرضاً ، يغلق الباب بصفاقة متناهية وهو يسب ويلعن كعادته ، أنهض متحاملاً على العدم ، أُفتش عن تلك الومضة التى ترق لحالى بين انتفاضة عين ورقصة قلب جريح ، أتعثر فيه ، يتأوه ، أتمتم فى سرى معتذراً ، أحمل رأسه بين ذراعي ، السائل اللزج يلطخ وجهه ، وغرغرة الزبد فوق شفتيه تسيلان على حبل واحد حتى رقبته، ثم على ذراعي حتى طرف الزَّنْد ، يقطران نقطاً على قدمي ، يتيبسان ، لا أقوى على الحركة ، أضمه إلى صدرى ، أدخل معه فى حوار صامت، يقشعر بدنى ، يخفق قلبى وَجَداً وحناناً ، أتلمس انساناً يرزح تحت الجلد ، روحاً تقاوم الموت ، أمد يدى إليه فى أعماقى ، كان غارقاً حتى أنفه ، أباعد بينه وبين ذراعيها الأزهرين المتشبثتين بصدره المشعر العريان :

– أوه سيانا يالمنسحقى القلب ، أغلقى هذا الشئ .

– دعنا نسمع ولاتكن سوداوياً هكذا .

– بل طوى الشتاء الطويل ثوب الربيع السندسى ، الغيوم السوداء تلاحق رأسى ، تمطر فوقى كل ماهو هم ونكد من أخبار هذا الزمن العجيب ، هيه هيا هيا ناولينى السيجار والـ.....

الدم يغلى فى عروقى ، تنهض عارية ، يتشحنى الجنون ، أبحث عنها فى كل مكان ، تحت الفراش والخوان الخشبى ، وتحت الأبسطة ، تنقض على كعقبان لمح فريسته فى العراء :

- أوه سيانا أحبك حتى الجنون ، وقد أسكرتنى قُبلتك ، رضاب شفتيك ذائب فى دمائى سيانا ارحمينى أرجوكِ .

رجلاى ترتعشان ، قلقلة رأسه فى حجرى توقظه ، ينهض فزعاً من الموت ، يمسك بىّ قبل أن تنهار فوقى إرادتى ، أحاول التملص من قبضته ، أصرخ بصوت عالٍ أصابعى تنهش فى لحم جسدى وتدميه ، أتمَرَّغ فى تراب الأرضية الأسمنتية :

- سيانا ، سيانا ارحمينى بالله عليكِ إننى أتمزق وأموت .

برفق يأخذ رأسى من فوق عنقى ، يدفنها فى صدره الدامى، أسمع دقات قلبه تتمتم بالفاتحة من أجلى .

●●●

(٣)

فوق رأسينا الحذاء الحديدى والعريف مائير ، ينطق بخبث وقد لمح رأسى فى خبء صدره وذراعيه :

- هيه مادمتما قد تحابتا هكذا فلا أحسبن أن يداً سوف تكون أرحم من يد أحدكم على الآخر .

هببت مستغرباً غاية الاستغراب :

- ماذا تعنى تحديداً أيها العريف !.

- ليأخذ أحدكما عصاى هذى ، وليكن لصاحبه قاضياً وجلاداً فى آن واحد .

- أَجننت ؟! ، إفعلها بنا ان شئت ، أما أنا فلا وألف لا .

للمرة الألف يركلنى بمقدمة ركبته فى منطقة حساسة ، أنثنى متأوهاً حتى أكاد ألامس رأس الشيخ من فرط الألم ، يداه تلفان رأسى يضغط بحنان عليها وكأنه يسر لىّ قائلاً :

- مادام الموت بيد أحدنا فنحن بمنجاة منه .

خرقت رغبته وضغطة يده على يدى جدار الرفض فى أعماقى، يعيد الكرة مرة ومرات ، الاستسلام سهل ومغر ، والصمود معناه الموت ، فى النهاية استسلمت لرغبته ومنطقه الصامت ، أتناول

العصاة من يده بعينين تطقان شرراً تطفئهما ظلمة المكان، أسمع صوت ضحكته الماجنة ، وتراجعه إلى الوراء حتى باب الزنزانة المفتوح ، يتسلل عبره قبساً من الضوء الشاحب، يهتف بىّ زاعقاً :

- هيا ، هلم ماذا تنظر يابن الـ.....

ياللمسكينة أمى ، أنهال بالسوط اللاهب على ظهره العُريان ، يصرخ ، أتوجع ، فى اليوم التالى مباشرة يرفض أن يفعل بىّ نفس الشئ ، يسحبونه إلى أين ، ربما إلى المسلخ أو ليصعقوه ويحرقوه لا أدرى ، أقذف بالتفاحة الحمراء مكافأتى فى وجهه ، صوته الوقح يطاردنى بسماجته التى لاتطاق :

- أنت اليوم فى راحة تامة مادمت تسمع الكلام .

يتركنى للنار تأكلنى حسرة من أخمص قدمى وحتى أم رأسى:

- يالىّ من صغير خسيس .

أذهب إلى الجدار أُريد أن أشجه برأسى ، الدم يغلى مجدداً فى عروقى ، أنشب مخالبى فى عنقى ، ألفظ أنفاساً قذرة ومتقيحة كالجروح والدمامل المنتشرة فى كل أنحاء جسدى منذ أتيت إلى هذا المكان البغيض ، أصرخ كالأخرس :

- سيا ، سيا ، سيدنا الشيخ .

●●●

(٤)

كم من مرة أخذونا إلى مكان ناء لنقضى فيه حاجتنا ، ثم يعيدوننا إلى نفس المكان الموبوء أو غيره سيان عندى ، الشيخ ينزف دماً ، صوت أنفاسه الثقيلة تحف بمسمعى ، أهمس فى نفس قانطة : « إن لم يقتله العذاب فلسوف يقتله الربو».

أصمت ، لأول وهلة أتصور أننى نائم وأحلم :

- أظن أنهم لن يتركوه يرحل بهذه السهولة .

قبل أن أجيب ذلك الصوت الغريب أُدرك أن السؤال ينتظر مجيباً غيرى :

- لوكانوا كذلك حقاً كما تقول لعالجوه من ترسبات البارود فى جسده ، ولكن حدثنى عن نفسك أولاً ياأخى .

أجيب مردداً وكلى دهشة مع صوت خافت يصدر عن وجه ما :

- سالم الغضبان ، من حى جباليا بيافا العربية ، وأقطن قريباً من ساحل البحر ، هه ، يقولون أن الزمن قد توقف عن السير هناك منذ عشرات السنين ، وأنتَ ؟ .

أتجاهل رغبتى التى كانت تشتد شيئاً فشيئاً فى تناول المخدر، أتدانى زاحفاً بالقرب منهما ، أحس أن لسانيهما فى فمى :

- رعد من القدس القديمة ، من عائلة نسيبة المسلمة التى تتوارث المفتاح الخارجى لكنيسة القيامة أباً عن جد ، وذلك برضاء تام من اخواننا المسيحيين .

- أخى أُتُرانا فى معتقل غزة الرهيب ؟.

- لا ، فإننى قادم للتو من صرفند والرملة وبعدهما نقلونى إلى زنازين المخابرات فى غزة وهى لاشئ بالنسبة إلى هنا.

- يبدو أنك من المشاغبين .

- الحجر يثور لحبيبتى وابنة عمى روضة الغزوية .

- آه ، شهيدة نفى ترتسا بالرملة ، رحمها الله .

أسمعه ينتحب ، وكأنما يضمها إلى صدره فى شوق ووصال :

- لقد عاهدتها من وراء القضبان فى مثواها الأخير أن أظل ثائراً إلى الأبد ماداموا يقومون على مصائرنا مقام الآلهة .

- وبعد ؟.

- لفقوا للمسكينة تهمة الاعتداء على مستوطنتين فى القدس الشرقية ، ولم تكتف السلطات بحبسها ، بل داست البساطيرالعسكرية على منزل أبيها فى حى السجاعية وسوته بالأرض تماماً، ثم أعلنت أجهزة الإعلام نبأ إطلاق الرصاص عليها إثر محاولتها الهروب وقد كانت .....

أحسست بالدموع الساخنة تنفجر شلالاً من مسيل عيني ، شهقت قائلاً بصوت يتمزق ألماً :

- كانت ماذا ؟.

- كانت مصابة بشلل الأطفال فى ساقها الـ.....

سكت فجأة ، رسم علامة استفهام فوسفورية تركت وميضاً باهراً فى نفسى :

- مَنْ ؟!.

لذت بالصمت التام لحظات ، ثم قلت متلعثماً بعد تردد شديد :

- أأأ ، أنا .

أتانى صوته الغاضب عبر غيمة سوداء كانت تتذرنى بالويل والثبور وعظائم الأمور ، واسترقت أذني السمع لتمتمة هامسة جداً أتت من ناحية ما : «كن حذراً منه».

- مَنْ أنتَ ؟ ، وماحكايتك ؟.

- أرجوك اعفنى من هذا السؤال .

قال الآخر بحدة :

- ألا يمكنك التحدث بالعربية .

أحس بشبحيهما يفتشان عنى فى عتمة المكان ، ثم يستويان فوق رأسى ، ولو خطا أحدهما خطوة أخرى لتعثر فىّ وسقط على جسد متهالك ، قلت بعد برهة :

- سأحاول .

- تكلم مَنْ أنت ؟!.

- وماذا يعنيكما فى أمرى ، وكل ماأعرفه أنهم اعتقلونى منذ اسبوع أو شهر أو سنة لا أدرى .

قال الغضبان وهو يطوح برجله فى الفضاء وراء بصقة غليظة غطت وجهى :

– أتمزح أيها العميل الوقح .

– واللّه لا أعرف شيئاً ، ليتكما تجيبانى على نفس السؤال، مَنْ أنا حتى يكلفوا أنفسهم مشقة إحضارى من أقصى بقاع الأرض إلى هنا تحت الأرض .

– لو كان زعمك صادقاً فأنت ولابد قد تورطت فى شئ ما ضد السامية ، هنا تتم تسوية كل الحسابات ، هه أو يظنون أن أحداً قد تجرأ وحلم ضدهم !.

قال الآخر :

- أترى أنت ؟.

- أجل ، وفوق ماتتصوران .

قال رعد وقد خفت حدة ثورته وهو يجثو أمامى على الأرض، أحدق فيه ، أرى فى خيالى ملامح منهكة مذعورة :

- من أى بلد أنت؟.

- إننى شئ وجنسيتى شئ آخر .

قال سالم موجهاً حديثه إلى رعد كما فهمت :

- لن يتكلم وكذلك نحن .

خيم الصمت التام على المكان ، الشيخ الطيب بين يدي يختنق، أتلمس أصابعه المهشمة ، ثم أملس بطرف أنملى على ملامح وجهه استكشف هيئته ، ماأكثر تعاريج الزمن فوق وجهه ، تتمزق نياط قلبى دفعة واحدة ، أتساءل إلى أيهما أو كليهما معاً :

- ألا يرحمون شيبة هذا الشيخ المسن ؟!.

يضحكان طويلاً ضحكة المندهش ، يقولان معاً فى صوت واحد:

- هه الشيخ !! ، هيه يالها من أيدٍ بيضاء وقلوب سوداء .

- ألا تسمعان دقات قلبه وهى تخفت شيئاً فشيئاً ، والرطوبة التى تضرب فى نخاعه رغم البرش البلاستيكى تحته ، إنه لامحالة ميت ويخدعنا بأنفاسه .

- هه عندما يذوب الجبل الكبير تبقى الطُلُول .

أتمتم يائساً :

- يبدو أننا جميعاً قد ركبنا فى لحظة واحدة سفينة تغرق فى قاع المحيط ، فيالـه من مصير مشئوم .

قال رعد ساخراً :

- اللّه ، يالـه مـن وصـف شـاعرى لمأسـاة إنسـان يحتضـر بـين يديـك ، لِنُسـم ملهاتـك مثـلاً ملهـاة الصبـى العجـوز ، أو أنشـودة الهلكـى.

- كلنا هالكون فى هالكون الكبير .

يضحـكان ، يسـتطرد الآخـر الـذى نطـق العبـارة الأخيـرة بلهجـة صـرف شـامية :

- ألست شاعراً مثلك ؟.

قلت كاظماً الغيظ فى صدرى :

- لقد صدقت ، فقد كنت شاعراً بالفعل .

- هه كنت ، وهل مات الشاعر ؟! .

- نعـم تلفـت حولـه منـذ صبـاه فوجـد نفسـه فـى دائـرة سـوداء، خـارج الحـدود التـى عـرف بهـا زمانـه ومكانـه ، هـه يقولـون عليـه أنـه الشـاعر الأسـود ، الـذى يسـكن جثـة بيضـاء فـى يخـت أسـطورى ضـال يمخـر عبـاب البحـار .

قال سالم بصوت خفت حدته هذه المرة إلى حد ما :

- ولماذا لم تبرح هذه الدائرة الكئيبة ؟!.

قلت وزبد الخمر يذهب جفاءً فى حلقى :

- لقد فُرضت علىّ مثلما فُرض عليك جسدك ، وجهك، لونك ووطنك وأشياء أخرى كثيرة لايمكنك أن تتخلى عنها أو تتحلى بغيرها ، هيه وماذنبى أن ماتت قضيتى على جدران القلوب.

خيم الصمت من جديد على المكان ، صوت شخيرهما يأتى مختلجاً بصوت الدماء وهى تغلى فى عروقى ، أتشنج فى محلى، أتماسك على غير عادتى ، أصرخ فى سويداء نفسى : « سيانا مَنْ أنتِ بحق السماء ؟!!» .

رأس الشيخ هامدة فى حجرى ، ألثم جبينه بشفتي الجافتين، أطرح رأسى إلى الوراء ، تقبضنى إغفاءة ، ثم.....

●●●

(٥)

أفقت من غفوتى على يدي العريف مائير تهزانى بقسوة مقيتة، خلفه وقف الضابط المناوب ينهرنى بشدة كى أهب واقفاً، نهضت ذاهلاً ، اقتادانى فى الحال إلى الدهليز الذى رحنا نجتازه كالأشباح، على الجانبين منا كانت الزنازين تفوح منها رائحة كريهة لأنفاس ميتة، تخنقنى ، أسمع أصواتاً بشعة تئن من شدة الألم كانت تتسلل عبر فتحات ضيقة للتهوية ، تعتصر قلبى، يزداد اختناقى ووجيفى، تخليا عن قيادى فجأة ، دفعانى إلى حلقة الضوء الباهرة ، كدت أسقط على الأرض ، ساقاى لاتقويان على حملى ، تشبثت بيدي فى آخر لحظة بأطراف المكتب الخشبى لاهثاً ومضطرباً جداً ، لمحت شبحه الجاثم وراء غلالة كثيفة من الدخان ، صرخ فىّ بصوت جهير قبيح ، رصّ فى أذني أسماء غريبة لم أسمع بها من قبل ، ثم نهرنى متسائلاً فى حدة ربما للمرة العاشرة :

- ماعلاقتك بهؤلاء ؟.

يدا مائير الغليظتين كيدى شمشون الجبار تلويان عنقى ليا قاتلاً ، يدير رأسى رغماً عنى ناحية زاوية ما فى غرفة التحقيق الرهيبة ، وقعت عيناي على جهاز «البرجيكتور» كان يعرض صوراً لأشخاص ما على شاشة بيضاء كبيرة ، لم أحر جواباً فى البداية،

انتظرت برهة كنت قد تخلصت فيها من يدي مائي ، ثم التفت نحو مصدر صوت السائل قائلاً ، ومؤكدا فى الوقت ذاته بهزات نفى من رأسى يمنة ويُسرَة :

- لا ، لا، لاأعرف أحداً منهم على الإطلاق .

- تعاون معنا ، ولسوف ترى أثراً طيباً بعد ذلك .

- قلت لاأعرفهم .

انهالت على ظهرى السياط اللاهبة من كل صوب ، مع صوت فظ لرجل آخر دخل فجأة إلى الساحة التى تجرى فيها الملهاة الكبرى ، رشقت عيناي فى وجهه الكالح الدميم وهو يقول مؤكداً بسبابة يده اليسرى :

- رجالنا يؤكدون بما لايقبل معه الشك أنك قد قابلت بعضهم فى شتوتجارت وأمستردام وصوفيا و.....

قلت محتداً :

- كذب وتلفيق ، إننى لم أر ألمانيا فى حياتى !!.

للمرة الألف تنهال سياط الغضب الباطشة على ظهرى العُريان، أوجع منها تلك الشتائم ، أغمغم فى سريرتى : « أمى أبى ، ماذنبكما ، تهانان وتُسبان بسببى هكذا ، وقد توسدتما الثرى وطواكما النسيان منذ زمن بعيد !» .

أجتر بصعوبة ذكريات ممضة وأليمة ، أتأزم ، أدعك فروة رأسى وجبينى بيد مرتعشة ، أغور فى أعماقى ، أنسلخ عن عالمى الكئيب شيئاً فشيئاً ، أصبح مخلوقاً آخر ، ألمح عصفور الدورى وقد انتفخ الطوق الأسود تحت عنقه ، يزقزق ويتواثب بين أغصان شجرة الليمون الكبيرة ، ويمامة تنقر فى جذع شجرة الباو بجانبها شحرور يغرد ، وقُمَرى راح يَهْدِل عند الكرمة الصغيرة ، أشد المصيدة حتى آخرها ، أقذف بالحجر تلو الحجر ناحية الأغصان المتشابكة ، يجيبنى الفشل ، تنتبه إلى يدى المخضبة بدماء كُرَكىٍّ صغير سقط من فوق سِدْرَة عالية ، فى يدى الأخرى كانت أقحوانة تلم أوراقها البيض على قلبها الأصفر ، تنطفئ، تغدو بلارائحة ، تنهرنى بوجهها السمح المطل من وراء نافذة مقدسية زاهية الألوان ، تتقاطر بالدموع فى مسمعي كلماتها :

- ماذنب هذه الطيور البريئة ، إيِّاك أن تقطف زهر البنفسج والسذاب من الأحواض ثانية .....

يقطع صوتها المنفعل صوته الهادئ الرصين الآتى من وراء ظهرى مباشرة ، كان يدخن الأرجيلة تحت خميلة الياسمين ، أسمع كركرتها تختلج بصوت ضحكة وقورة حانية :

- خلِ أحجارك للحيوانات القبيحة فقط .

الشوارع ، الأحياء ، البساتين ، المدن تتحول فجأة إلى أفخاخ ومتاريس ، أشجار الكرم والموالح والزيتون على جانبى الطريق

تتعانق بالنيران ، تتوارى البيوت ذوات الأحواش والمساقى البديعة الألوان ، والمآذن العالية الملامسة قبة السماء ، وأبراج الكنائس المتهاوية الأجراس ، وراء ألسنة اللهب الممتدة على مرمى البصر ، رباه الجنة تحترق !!؟.

أستفيق على ضربات يئست من جسدى ، ينبرى لىّ بصورة وجهه البشعة وهو يصرخ ، أراه لأول مرة من غير غلالة الدخان الكثيفة التى كانت تحيط به دائماً ، كان قبيحاً كالقرد :

- أهذا لك ؟ .

أدقق النظر فيها بإعياء شديد ، أهز رأسى بالإيجاب .

- أجل هذا يختى .

يقدم إلىَّ صورة أخرى تحترق ، أصرخ يائساً :

- لماذا فعلتم ذلك أيها المجانين ؟! .

من فوق سطحه الدائرى كنت أرى الشمس وهى تتكسر على حافة الأفق الدامى ، عند صخرة أفروديت ، كانت تخرج لىّ من زبد البحر فى ملابسها الشفيفة تعانقنى ، ربة الجمال تمسح وجهى وجبينى بالقبلات الحانية ، تطفئ التظاء النار فى قلبى الشغوف ، تهمس لىّ :

- رفقاً بنفسك أيها الشريد فى عالم التيه .

رباه ، حرقوا سفينة نوح ، عالمى ، يقطع حبل شرودى سيلاً من الشتائم الغليظة ، يرفع وجهى من أسفل ذقنى بطرف سبابته، ويده الأخرى تضغط فى موضع العفة ضغطات عبثية لاتحتمل ، أتلقى نظراته الشيطانية المتسائلة باندهاش شديد :

- هناك مبالغ ضخمة قمت بسحبها ، وبتحويل مبالغ أخرى كبيرة من بنوك نيويورك إلى العديد من بنوك آسيا وأوربا ، فلِمَ هذه التصرفات المريبة ؟!.

تكورت وجنتاى من فرط الغضب ، قلت وقد نفد صبرى تماماً :

- التجارة تعنى حاجتى الدائمة إلى السيولة ، والسوق مجنونة نتحرك بها شرقاً وغرباً لئلا نسقط من فوق أنفسنا ، ثم ماشأنكم بكل هذا ؟! ، سوف تحتج دولتى لديكم بشدة لوعلمت بالأمر ، وربما تقطع علاقاتها معكم فى التو واللحظة .

- هاهاها ، هاهاها ، هاهاها.....

دوت قهقهات جنونية من حولى وجلجلت فى أنحاء المكان ، انسل صوتاً حانقاً إلى أذني من بين ضحكاتهم الهستيرية التى كفكفوها بأعين دامعة :

- أكاد أجن لم نُثبت أى شئ عليه حتى الآن .

أسر إليهم بذلك ، صمت برهة ثم قال زاجراً إياىّ :

- تعال أيها الإرهابى الكلب ووقع لىّ هنا .

- وعلام سأوقع ؟!!.

يد مائير تعرف طريقها جيداً إلى مؤخرة رأسى ، أغيب عن الوعى ، تتعلق كلماته بذاكرتى لحظة ثم يتهاوى صداها مشتعلاً كالجمر فى أعماقى :

- على الهواء يابن الفاجرة الـ.....

ثم يتهاوى منى القلب والجسد ، أنقبض ، امتثل لأوامرهم ونظراتهم الكريهة صاغراً ، أستدير منصرقاً ككلب معاق ، وحانياً رأسى وفؤادى بين يدى الحارس الجلف «مائير» .

راح يسوقنى بلسانه اللاذع عبر الممرات المظلمة ، ثم نزل بى فى متاهة خافتة الإضاءة تحت الأرض ، أحسب نفسى فى قاع الهاوية ، تصطك بأذني أصوات رهيبة تصرخ من الألم بين يدي زبانية جهنم الحمراء ، يزداد خوفى وانقباضى ، هنا المجهول يكتب التاريخ السرى للبشرية ، وهاقد أصبحت جزءً من هذا التاريخ الأسود الملوث بالدماء ، أزعجنى ذلك الخاطر البشع ، أتساءل إلى نفسى بهلع وكأن ملك الموت يطرق بابى : «تُراهم متى سيسدلون الستار الأبدى ، الآن أم غداً ، هنا أم أين ؟» .

رحت أتصبب عرقاً كنت أبدو كالغريق الذى ينتظر يائساً قشة النجاة أى قشة ! .

أمام الرّتاج الخشبى الكبير وقف يعالج بعض المزاليج التى علاها الصدأ ، أفقت من شرودى على يديه تدفعاننى قسراً إلى الداخل ، أشعل ضوءً خافتاً كشف عن وجه المكان القذر ، بعينين مغمضتين رحت أخمن ماأسرته صفحة الغيب ، تغمرنى الهواجس المرعبة ، ولم يخب ظنى كثيراً لسوء الحظ ، الهشّامة الحديدية راحت تفرك يدى المبسوطة على شئ حاد كالمسن المعدنى ، تفتك بأصابعى أنملة بعد أنملة ، أصرخ صراخاً متحشرجاً لايطاق ، أرعبت به معذبى الذى قال وهو يعقد أساريره بصوت شامت :

- إن لم تنطق ، فلسوف نأخذ غداً إصبعك الآخر ، وهكذا إلى أن تنطق .

- ولنقل أن هذه هى بداية الموتات التسع [٢] .

قالها مائير وهو يعيدنى ميتاً إلى دمنة الأحياء ، تطوينى الآهات والدموع فى مسارب المستحيل ، كنت أبكى بلوعة ومرار وأهذى بصوت مسموع :

- حرقوا بدر البحار وهى راسية فى وداعة الحملان .

- المجرمون ، يظنون الدنيا بأسرها وكراً للشياطين التى تحاربهم .

قال رعد تلك الجملة وهو يزحف بجسده على الأرض بطريقة دودية ، فرد سالماً بصوت ثائر غضبان :

- يحرقون كل شئ حتى تغيب شمس الأمل إلى الأبد .

أسمع الحوار الدائر بينهما ، كان يخفت شيئاً فشيئاً فى أذني:

- إنهم يعمدون إلى حرقنا نحن أيضاً ولكن بلاأفران ، وكم يشتد جنونهم عندما يجدون أننا قد كتبنا وصايانا على جلودنا المحروقة ، هه إنها ضريبة الدم ياصاح .

- سوف يلهثون كثيراً وراء الغروب المستحيل ، يتناسون أن الشمس تغرب فى أعيننا فقط ، ولكنها تظل باقية دائماً أبداً لتنير الظلام من علياء الوجود .

أتمتم فى نفسى ، لايسمعاننى : « هيهات أن تعوض الكلمات نفساً كليمة وفؤاداً يتنزى ألماً» .

تسكننى رعدة شديدة ، أشعر بدوار سخيف ، ألفظ أنفاسى لفظاً مريراً ، أصرخ بصوت عال مخنوق ، النظرات الحيرى تترأرأ فى المُقَل ، صوت الأنفاس الرتيبة وهى تعلو وتهبط فى الصدور الملتهبة كلها أشياء لاحقتنى حتى عالمى الغيبوبى .

●●●

(٦)

كانت صورته وهو يذرى الغلال تومض فى مخيلتى بين الفينة والفينة، الشمس تسيل عرقاً على جبينه المقطب السمراوى، زفراته الغاضبة راحت تفرى وجه السماء بشظاياها ، تسيل عبراتى رغماً عنى ، أشعر بقلق شديد ، الوجوه تغيرت ، الألسن تبدلت ، طوال الليل أسترق السمع إليهما وهما يتناجيان ، كانت واقفة قبالته تربت على كتفه ، وبيدها الأخرى تمسح على ترجيلة شعره السبط ، خلفهما من النافذى الزجاجية بدا البدر محجوباً بغلالة سحابية ممزعة ، جعلت تجليه تارة وتخفيه تارة أخرى ، أصار الليل الشجر أشباحاً تتراقص برؤوسها نظراتى الذاهبة والآيبة فى قلق ، يأتى صوت حفيفها المرعب مختلطاً بصوته فى أذنى :

- لن أبيع ذرة واحدة من الأرض .
- تذكر طفلنا ، لم يبق غيرنا فى القرية .
- إن الأشجار تموت واقفة ، لن أجبن ، لن أكون حوتاً يائساً مادمت واقفاً على أرض صلبة .

رأيت دمعة انهملت من عينيها الفيروزيتين ، راح يقبلها بقبلة حانية ، يتآسيان ، يغيبان عن عيني ، أتشنج ، أفتش عنهما فى كل مكان بلاجدوى ، لم يكن فى استطاعتى البحث تحت الجدران المنهارة ، تحتقن الدماء فى وجنتى ، أصرخ ، أنشب أصابعى المهشمة فى لحم جسدى الذى أصبح ضامراً ، تراودنى أحلام الفتاة الساقطة ، أحس به ينهض متحاملاً على آلامه ، يضمنى برفق إلى صدره ، لايفصلنى عن قلبه سوى عظام صدره الناتئة فى جسده الناحل ، تخضلت لحيتى الكثة بدمائه ، رغم السحابة القاتمة التى غمرتنى إلا أننى لست بناسٍ زهرة البنفسج وهى تذبل وتموت أمام عيني على راحة يدى ، أشعر بالأسى يهيض قلبى ، أسحقها تحت قدمى ، يتسلل إلى سمعى صوت سيانا المخادع الرخيم :

- أوَ تسحق حبى تحت قدميك ، أقسم أننى سوف أملأ غرفتنا بأزهار الكولومبين أيها الناكر للجميل .

أنطق شارداً فى المجهول :

- إن حياتها كلها ألم برؤه فى انطفائه .

تفزعنى الذكرى ، ضغطة أسنانى على شفتى السفلى تدميها بشدة ، أجيل السمع فى حنايای ، صوت ما يهتف بىّ صارخاً :

- لن أموت على كف يدك ، لن تقبضنى أصابعك الفتاكة ، لن يسحقنى يأسك ، اخلع عينيك واتبعنى .

أدفع يده بعيداً عن روحى فى آخر لحظة ، يحدجنى بنظرة نارية تشعل أغوارى السحيقة ، أسمعه مرتعباً :

- مادمت تأبانى فلِمَ استدعيتنى يا.....

أقاطعه مهرولاً إلى أقصى مدى ممكن ، أعانق نسمة أى نسمة فى الطريق ، أهرب ليس حباً فى الحياة ، ليس كراهية للموت ، أتمتم لاهثاً :

- تجاهلت نداء الغارق طويلاً وهأنتذا تأتى بلاموعد .

تهدأ سريرتى شيئاً فشيئاً كما يهدأ الشجر على الربُى بعد عاصفة مدمرة ، أستعيد سكينتى ، أنتبه إلى صوت شحرور راح يحدث صخباً مزعجاً فى الخارج وكأنما قد فقد نای الطرب ، أصيخ السمع ، أجيل نظراتى المتلئة بالفضول فى أنحاء المكان ، أنطق بنبرة هادئة لاتخلو من حشرجة :

- يبدو أننا فوق الأرض لاتحتها كما كنت أظن من قبل .

ينهض رعد من غفوة المقيل كما قال لنا ساخراً قبل أن يطرح جسده المكدود على برشه البلاستيكى ويأخذه النوم :

- وما الفرق إذا كنا لانعرف أين نحن ، وهل الدنيا فى الخارج ليل أم نهار !؟.

يتملكه الشرود للحظة كما خمنت، أسمعه وهو يطلق تنهيدة عميقة من صدره المشحون ، ثم وهو يردف قائلاً بنبرة ساخرة أدنت قطاف الزهد من شفتي :

- هه الحياة ، ما الحياة وكلها تنطفئ بإغماضة عين !.

- ليت العالم كله كان معنا الآن .

يتشحنا الصمت ، تقطعه صلصلة الأغلال فى أقدامنا ونحن ننهض فى ذعر ؛ كرد فعل مفاجئ لما يتربص بنا فى تلك اللحظة الكئيبة ، يعلو الجهام جبينى ، تتتابنى رعدة داخلية شديدة ، يرتج لها على الأثر جسدى ، أسمع رعد يسألنى بصوت حاول أن يتحكم فى نبرته إلى حد ما :

- ماذا يرهبك من هذه الضجة المثارة فى الخارج ، أَوَ لم تعرفهم بعد ؟!.

- قلبى مقبوض بشدة هذه المرة .

تلتقى أعيننا صدفة بعينين قبحتين راحتا تطلان علينا من وراء الكوة التى انفرجت بغتة فى أعلى باب الزنزانة الحديدى ، نسمع أصواتاً مرعبة تنبح وتدمدم فى الخارج ، انشق الباب عن رجال طوال عراض كالأشباح المخيفة ، ولجوا فى لمح البصر إلى الداخل، خلفهم من العمق الخارجى انسل بصيصاً من الضوء

الخافت ، نكاد لانميز أنفسنا فى الزحام ، رحنا نتراص وراء أسمائنا التى ينادوننا بها ، أخذوا يحدقون فينا بشدة ، اقترب بعضهم منه، نزعوا رأسى من حمى صدره الحانى ، راحوا يجذبونه بهمجية ، تعوقهم قبضة يدى المتشبثة بأطراف ملابسه البالية ، ألمح بسرعة خاطفة على هدى الضوء الشاحب ، شبح رعد وهو يدفن وجهه بين كفيه صارخاً فى حسرة ولوعة بالغتين :

- أوه روضة ، ياللمأساة التى لاتنتهى !.

لست أدرى قلباً أى قلب فى العالم يمكنه تحمل تلك الخفقة الشديدة التى زلزلتنى ، أتشنج كالمصروع ، أعاود الكرة من جديد، أحاول التشبث به بكلتا يدي المهشمتين ، أشعر بالأرض تسحب من تحت قدمي ، الكلاب المتوحشة التفت حول جسدى الذى اختل توازنه بعد شد وجذب دام تنهشه ، أصرخ صرخة الموت المحتم ، وجه مائير الكالح يعوى ويبصق فى وجهى :

- داهية تأخذك أنت الآخر .

اختفوا به ، إلى أين ؟! ، لا أحد يدرى ، نظراتنا الراكضة تتبدد خلفهم فى الظلام الدامس ، تصطدم بالباب الذى صفق بشدة فى وجوهنا ، لفنا الذهول بوشاحه الأسود ، ارتميت على الأرض ، تملكنى النشيج الحاد ، فجأة استفقت متذكراً أمراً ما ، شرعت أستحضر اللحظات القليلة التى انصرمت ، يده فى قبضة

يدى ، كانوا يشدونه وكنت أقاومهم باستماتة ، قبل أن أعلن فشلى دس شيئاً ما فى يدى ، لا أجده ، أهب كالملدوغ متناسياً الكلاب والدماء المتفجرة من شراييني ، أتحول إلى آلة تحرث فى الأرض بلاوعى ، الظلام الحالك ، والأقدام الكثيرة والكلاب التى كانت هنا كلها أشياء جعلت من مهمتى مستحيلة بكل ماتحمله الكلمة من معنى ، كنت أبدو كمن يحرث فى البحر بأصابعه ، أصرخ منهاراً بصوت رجرج صمت الوجود السرمدى :

- اللعنة على مَنْ يصنعون الظلام .

فجأة انفرجت أساريرى ، أتنهد مستريحاً ، قلبى بين ضلوعى يرقص طرباً ، أتلمسها بإصبعى الإبهام والسبابة ، كانت رقيقة للغاية ، رحت أدسها برفق وحذر شديدين فى جيب الأفرول ، تساءلت فى نفسى بلهفة اليقظان الغارق فى بحر الأحلام ، كنت ماأزال قابضاً عليها فى جيب سترة السجن الزرقاء :

- متى وكيف وأين ؟!.

انتشلنى النوم من بين ضجيج الهواجس والرغبة المعتملة بشدة فى نفسى ، ولم تأتنى سيانا ككل لحظة وليلة ، كانت اللعينة قد ذهبت بلارجعة .

●●●

(٧)

استيقظت على صوت كوة الباب وهى تُفتح ، فى أثرها عَبَرَ الظلمة الكثيفة إلى أسماعنا صوت أجش يقول وهو يدير المفتاح فى فرجة الباب :

- الفورة .

قال سالم وهو يتنفس الصعداء :

- هيه أخيراً .

سألته متلهفاً :

- أشم رائحة النور فى الموضوع .

- نعم سوف نستروح النسيم العليل لدقائق معدودة بعد أشهر الضنا التى حييناها أو قل متناها فى هذه المقبرة الموبوءة .

أنهض محبوراً رغم الأغلال التى تأسر حركتى وأمراض الدنيا التى حلت بجسدى إلا أننى تناسيت كل هذا ، رحت أسبقهما إلى الخارج ، كنت أتحسس جيبى فى لهفة العاشق المشتاق ، كانت مدسوسة بعناية فى ثنايا صديرى الأفرول الأزرق الذى تعفن على جسدى ، أهمس فى نفسى : «سوف أعبر أسوار المستحيل من أَجلِكِ ولو كلفنى ذلك عمرى» ، .

مال رعد آنذاك برأسه على أذنى وهامسنى بحذر شديد :

- قد يقتلونك بسبب هذه الشارة التى فى جيبك .

يد ما بضة ناعمة سحبتنى بغتة من بينهما ، ابتعدت عن زميلي مضطرباً وأسيراً لهاجس ما شل عقلى وتفكيرى تماماً : «هذه الحسناء لقد سمعته بلاريب ، قد يأخذون الشارة والسر إلى الأبد ، السر !!» .

انقبض قلبى ، كدت أتعثر فى ظلام الردهة الطويلة الصاعدة لأعلى ، فى نهايتها كان قبساً وئيداً من ضوء النهار البديع يكلل هامتها ، فكرت فى الهروب ، تراجعت ، إلتفتُ ناحية السجانة الفاتنة التى تسير معى كتفاً لكتف متسائلاً وقد بدت لى ّترتدى تنورة كُحلية اللون قصيرة للغاية :

- إلى أين ؟!.

قالت وقد زانت وجهها الأشقر المتنمر ابتسامة ما :

- لقد أعدمناك ولاحاجة لنا بك بعد الآن .

ضحكت بصوت يبدى دهشتى :

- أيعدمون الأموات هنا حتى يصيرون أحياءً .

مضت منصرفة ولم تعقب ، ولجتُ بمفردى عبر الباب الحديدى إلى الخارج ، غشانى ضوء النهار الساطع ، لأول مرة منذ زمن بعيد أرى الحياة ثانية ، أقابلها بعيني الأعشى ، أعانقها، استنشق عبيرها

الفواح ، أشم رائحة النرجس والفل والريحان والليمون ، رائحة ذكرتنى بالليمون اليافاوى الشهير وموالح الشام الشهية ، من بين أهداب مرتعشة رحت أتلمس الطريق من حولى، أدركت أننى فى حديقة غناء وحيداً بين العنادل والشحارير التى راحت تتحلق حول رأسى ، أشعة الشمس المتسللة من بين اشتباكات الأغصان المُشرعة فى مهب الريح ، تلسع إهابى الذى صار أكثر بياضاً عن ذى قبل: « أسرع حتى لايضيع منك الوقت هباءً» ، صوت ما فى داخلى أمرنى بذلك ، رحت ألبى نداءه على الفور ، أتلمس الصديرى ، أتوارى متلهفاً تحت صفصافة عالية، أسحبها برفق من وفاضى ، أبسطها متعجلاً أمام عينى شبه المقفلتين ، أتطلع شوقاً إلى صفحتها الخضراء المختلطة برائحة عرقه الزكية، أملى فيها النظر ، وأرهف سمعى إلى أقصى حد أطيقه :

- رحيل عبدالهادى ، إتحاد طلاب مدرسة جباليا الإعدادية.

تشع عيناي ببريق غريب ، لا أصدق نفسى البتة :

- ماذا !!؟ .

أضحك طويلاً :

- يالى من ساذج غبى .

آخذ نفساً عميقاً ، تلوح على وجهى ابتسامة رائقة ، أجيل نظرات خضراء من عينين غير عيني فى العالم من حولى ، أصرخ مغتبطاً ، أكاد أقفز وأتواثب كطفل صغير تفر من أمامه الحيوانات

القبيحة ، صورته وهو يحتوينى فى صدره المتخشب تلوح أمام ناظرى فى الأفق البعيد ، ربما لاتكون هيئته هكذا ، ولكن من المؤكد أنها روحه السامية : « هيه أيها الشيخ الصغير، تراه أين هو الآن ؟!»، أهمس بلسان أبى فى فمى المفتوح عن آخره :

- إن الخيرين رسائل ، سرعان ماتفض محتوياتها ، فى عقول تحترق شوقاً إلى الخلاص .

السجانة الرائعة الجمال تتقدم نحوى بغنج ودلال ، أنوثة طاغية ملفوفة فى قوام أفعوانى ، تقفز نحوى وكأنها تضبطنى متلبساً :

- ماهذه ؟.

- وصفة يشفى بها الأعمى .

- إذن أعطينيها حتى أرى ماتراه الآن .

- ليست لأمثالك ، فقد تموتين من عينيك الرائعتين .

ضحكت ضحكة عالية رنانة ، وقالت هى تسحبنى برقة من طرف معصمى إلى اتجاه ما بعينه :

- هيا أيها الفيلسوف ، زيارة .

- زيارة !!؟.

تحت ظلال شجرة الأيكاليبتوس الباسقة كان يولينى ظهره ، عند قمته العالية يستوى الشعر الأشقر مثل سبيكة ذهبية لامعة، هسيس أوراق الشجر المضغوط تحت قدمي لحظة تقدمى منه استرعت انتباهه ، أسفر ثغره فى الحال عن ابتسامة ناعمة ، خف إلىَّ هاشاً باشاً ، ثم قال بلغتى الانجليزية المكتسبة التى كدت أنساها فى الفترة القليلة الماضية :

- أرجو أن تكون بخير ياسيدى ومتفهماً لموقفنا .

أخذت استجمع الماضى على أطراف لسانى الذى استعاد ذاكرته تماماً :

- حسناً ماذا تريد ؟.

- أنا هنا من أجلك .

- هل أنت مندوب الصليب الأحمر الدولى ؟.

- لا ، إننى هنا كى أقدم احتجاجاً سرياً شديد اللهجة على ماأصاب أحد رعايانا الأبرياء .

- ولماذا السرية ؟!.

قال وقد علق حاجبه الأيمن فى سقف رأسه دهشة :

- العلاقات ياسيدى .

- لقد دمروا بدر البحار وصاحبها .

- أعرف ذلك ، سوف نتناقش فى أمر تعويضك .....

قلت مقاطعًا إيَّاه بإشارة من يدى :

- سيدى وفر عليك كل هذه المشقة ، ولنعش جميعاً أو لنمت جميعاً .

حدق الرجل فى وجهى برهة بعينين متكورتين ذاهلتين ، ثم قال وهو ينظر إلى السجانة التى بدت مندهشة هى الأخرى :

- آستير مَنْ هذا ؟!!.

جثوت على ركبتي ، غرست كلتا يدي المهشمتين حتى آخرهما فى الأرض الموحلة ، سحبتهما إلى وجهى ، أمسحهما فيه ، آخذ نفساً عميقاً، أنهض شيئاً فشيئاً ، وقد لاحت على وجهى ابتسامة واثقة، لم تُخفها البتة معالمى الطينية .

« الرحيل إلى الزمن الأخضر»

«قصة قصيرة لم تنته بعد»

---

(١) قردان عالباب : الصحون أمام الباب «بالعبرية»

(٢) هكذا كان يعذبون الأشخاص الذين كانوا يخالفون بعض النظم السائدة فى بلاد فارس القديمة بقتله بالبطئ وعلى مراحل تسع .

الفهرس	الصفحة

مقدمة..مساقط النور:..... ٥

لعبة الشيطان :..... ١٩

الرقص فوق السحاب الأسود:..... ٣٥

الحب يتنفس رصاص:..... ٥١

أيا توشكى:..... ٥٧

كانت هنا شجرة:..... ٧٣

حَفنة أسياد:..... ٧٩

جُنّت ليلى:..... ٩٣

مأساة الويشى:..... ١٠٥

الموت ولاهذه الابتسامة:..... ١١٣

وقالت لا:..... ١١٧

أحلام المدينة:..... ١٢١

عذراوات على شجرة السكر:..... ١٣٥

الرحيل إلى الزمن الأخضر :..... ١٥٣

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر